

مطبعة خزانة مكتبة مصر

بالآل

مؤذن الرسول

تأليف

عبد الحميد جوده الشجار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع محمد صادق النهار

مسجد جوده السحار وشر كاه

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبد

الليل ساج ، والهدوء شامل ، والظلام باسط رداءه
للأسود يحجب كل شيء ، وأهل مكة يغطون في نوم
هادئ مستقر ، لا تتخلله أحلام مزعجة ولا رؤى مفزعة ،
فحياتهم لهو كلها ، عبث كلها ، خمر ونساء ، طرب وغناء ،
والدنيا بالنسبة إليهم هي الحياة ، لا يعرفون آخرة
ولا أولى ، ولا بعثا ولا نشورا ، يغترفون في يقظتهم من
معين اللذات اغترافا ، ويعبون من كأس الشهوات عبا ،
فإذا ما جن الليل وأووا إلى مضاجعهم ناموا ملء جفونهم
كأنعام أنهكها التعب ، ونال منها النصب .

وتصرم الليل فارتفع صياح الديكة عاليا فهتك غلالة
السكون ، وقرع أذن الشمس فهبت من نومها واستوت
في مضجعها ، فبعثت أشعتها خافتة باهتة ، فتسللت من
كوات المنازل تدعو النوم في رفق إلى الاستيقاظ
والنهوض لاستقبال النهار ، والتأهب لاستئناف السير
في موكب الحياة .

ودبت الحياة في مكة رويدا ، وانتشر الناس في أرجائها
يبيعون ويشترون ، ويأخذون بأطراف الحديث في دعة
وهدوء ، لا يدور بخلداهم ما تخفيه عنهم الأيام من أحداث
جسام ، وما ستشاهده مكة من صراع هائل جبار ما شهدت
مثله بقعة من بقاع الأرض ، صراع بين الحق والباطل ، بين
الهدى والضلالة ، صراع يرفع أناسا ويضع آخرين ؛
ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لانقلب
هدوؤهم صخبا وسكونهم صياحا وضجيجا .

وأقبل أمية بن خلف ينهب الأرض بخطواته الواسعة
السريعة يتبعه عبد أسود اللون ، طويل نحيل ، خفيف
العارضين ، ضامر الوجه ، كثيف الشعر ، فلما أشرف على
الكعبة ضيق من خطواته ، وتمهل في السير ، والتفت إلى
عبداه وقال :

— إني لأرجو يا بلال أن يحالفك النجاح كما حالفك
في العام الماضي ، لقد كان نجاحك في تصريف تجارتنا حافزا
على أن تضع قبيلتنا أموالها في ركابك . لو فشلت يا بلال .
فلم يدعه بلال يتم مقالته بل قال مقاطعا :
— اطمئن يا مولاي .

— سيتحرك ركب قريش غدا ، وإني لأرجو يا بلال
أن يتم تجهيز قافلتنا اليوم ، حتى لا تتخلف عن الركب .
— سيتم ذلك يا مولاي .

— سيتخلف ولدى على عن هذه الرحلة ، وستكون
وحدك المسئول عن القافلة .

ثم دلفا إلى الكعبة ، فلمح أمية بن خلف أشراف
قريش في حلقة يتسامرون ، فالتفت إلى عبده وقال :
— سأنتظرك يا بلال هنالك (وأشار إلى حلقة السمار)
إلى أن تنتهى من تقديم قراييننا إلى هبل ، واستشارته في
أمر رحلتنا .

وانصرف أمية ، ودرج بلال نحو هبل إلههم العظيم ،
وكان على صورة إنسان من عقيق أحمر ، ويده من ذهب ،
وقدماه سبعة أقداح ، ولما بلغه وجد عنده رجلا وامرأة
تحمل مولودا ، وكاهن هبل يضرب بالقداح ، وحولهم
خلق كثير ، فعلم أن ثم مولودا مشكوكا في نسبه ، وأن
والديه يحتكمان إلى الإله ، فوقف مع الواقفين ، وأدبرت
القداح فكتم الناس أنفاسهم ، واشرابت أعناقهم ، وظهر
القلق والاهتمام على وجهى المرأة والرجل ، وكانت المرأة
أكثر قلقا واضطرابا ، تنتظر حكم الإله في لهفة وزهبة ،
فخرج قدح مكتوب فيه « صريح » ، فتهللت أسارير
المرأة وعلا وجهها البشر ، وضمت المولود إلى صدرها
فرحة ، ثم اقتربت من الرجل ورنّت إليه بعينين فيهما
عتاب ولوم ، وكانت نظرتها إليه أفصح من مقال ، ولكنها
لم تكثف بذلك ، بل قالت :

- أرايت ؟ لقد قال الإله قوله الفصل .
ثم انصرف الجمع وبقى بلال ، فتقدم من الكاهن فى
خشوع ، وقدم إليه هدية الإله وهو يتمتم :
- نتقدم إلى إلهنا هبل العظيم بقراييننا المتواضعة ،
راجين أن يشملنا بعنايته ، ويكلأنا برحمته ، وبارك لنا
فى سفرنا هذا .

فتناول الكاهن هدية الإله وضرب بالقداح ، وانتظر
بلال رد هبل العظيم ، فخرج القدح مشيرا بعدم السفر ،
فوقع فى نفس بلال حزن ثقیل ، وغشى وجهه الإظلام
وغمغم :

- أيشير بعدم السفر بعد أن جهزنا كل شىء ،
وأعدنا العدة للرحيل ؟

ولاحظ الكاهن حزن بلال الشديد ، فقال :

- قدم له قربانا آخر لعله يشفق عليكم ، ويرضى عن
سفركم .

ففعل بلال ، وهل كان فى وسعه إلا أن يفعل ؟ ودارت
القداح وخرج قدح مكتوب فيه « سافر » ، فسر بلال
وفرح ، ولكنه أراد أن يطمئن إلى رضى الرب ، فطلب من
الكاهن أن يعيد الكرة ففعل ، ووافق الإله على السفر كما
وافق فى المرة السابقة ، فردت نفس بلال إلى طبعها رد
الحسام إلى قرايه ، وانقلب إلى أمية مسرورا .

خرج أهل مكة لتوديع القافلة المنطلقة إلى الشام
تحمل أعز ما يملكون وأحب من يحبون ، تحمل أموالهم
وأحباءهم وفلذات أكبادهم . وحانت ساعة الوداع ، وأذن
بالرحيل ، ففصلت العير وانطلقت الإبل في قطار طويل
لا يبلغ البصر مداه ، واستوى الحرس على خيولهم
كسيوف مشرعات ، وراحوا يحومون حول القافلة
يتفقدون شئونها ، وكان بلال على رأس قافلة بني جمح ،
وأخذ الركب يعتمد رويدا رويدا ، ويختفي عن أعين
المودعين شيئا فشيئا ، حتى غاب في الأفق واحتواه الغيب
المجهول .

وانطلقت القافلة ترفعها النجاد وتحطها الوهاد ، وتتابع
الليل والنهار ، وتبادل القمر والشمس احتلال السماء ،
حتى بانت لهم أرباض الشام ، وكان التعب والنصب
والكلال قد نال من الإبل والرجال ، فخفت سرعة الإبل ،
وتراخى الرجال فوق رواحلهم ، ولاحظ بلال ذلك فرفع
صوته بالغناء فانساب عذبا نديا ، رقيقا حنونا ، انسكب
في آذان القوم فأنعش أفئدتهم ، ومس شغاف قلوبهم ،
وجلجل فأسكرهم بحلو نغماته ، وأنساهم ما هم فيه من
تعب ولغو ، فراحوا يتميلون ، ويرددون الغناء ، فدبت
الحياة في القافلة من جديد ، ونشطت الإبل في السير ،
فبلغ الركب الشام مع غروب النهار .

وأقبل الليل ومد رداءه الأسود على المكان ، واجتمع
كبار تجار قريش يتسامرون ، ومر عليهم بلال فدعوه
للجلوس بينهم فجلس ، والتفت إليه أبو بكر بن أبي
قحافة وقال :

— ما أندى صوتك يا بلال وما أحلاه ، أنسانا تعب
الطريق وقصر علينا المسافات .
ودار الحديث بين القوم حتى انقضى من الليل ثلثه ،
فانصرف الجميع للهجوع .

وكرت الأيام ، ونفقت تجارة قريش ، وتقابل بلال
وأبو بكر ابن أبي قحافة كثيرا ، وتوطدت بينهما أواصر
الصدقة ، وتوثقت عراها ، وفي اليوم الذى تجهزت فيه
القافلة للعودة إلى مكة ، لمح بلال أبا بكر يجد فى السير ،
فأسرع خلفه ، ولما لحق به سأله :

— إلى أين ؟

— إلى راهب هناك .

— وله ؟

— أستفسر منه عن تأويل رؤيا رأيتها .

وهم بلال بالانصراف ، فقال له أبو بكر : ألا تأتى
معى ؟

فوافق بلال ، وانطلقا حتى بلغا صومعة الراهب ،
فاستأذنا ودخلا وأخذ أبو بكر يقص على الراهب ما رأى

والراهب مطأطأ البصر ، وبلال مأخوذ بما يسمع ،
وما انتهى أبو بكر من كلامه حتى رفع الراهب رأسه
وقال له :

- من أين أنت ؟

- من مكة .

- من أيها ؟

- من قريش .

- وأى شيء أنت ؟

- تاجر .

- إن صدق الله رؤياك فإنه يبعث نبي من قومك
تكون وزيره في حياته وخليفته من بعد مماته .

فسأله بلال : وما النبي ؟

- رسول من عند الله .

فغمغم بلال : رسول من عند الله ؟

فقال الراهب :

- أجل يرسله الله هدى للناس .

فقال بلال : أيرسله هبل أم اللات والعزى ، أم أساف .

ونائلة ، أم إله آخر من تلك الآلهة الكثيرة بالكعبة ؟

فقال الراهب : يرسله الله خالق السموات فاطر الأرضين .

ويأمر ذلك النبي الناس بعبادة الله وحده لا شريك له ،

وبوصل الأرحام وتحطيم الأصنام .

- ١٠ -

فقال بلال بفزع : أيا امر بتحطيم الآلهة ؟ .
فقال الراهب : أجل ليحطمنها جميعا .

انتهت رحلة الشام وعادت القافلة إلى مكة ، فخفف رجالها إلى الكعبة يطوفون بها قبل عودتهم إلى دورهم واستقبال أهلهم ، واتجهوا جميعا إلى الآلهة الكثيرة في جوف الكعبة وحولها يشكرونها على ما منحتهم من بركات طوال سفرهم حتى عادوا غانمين . وطاف بلال مع الطائفين ، وتقدم مع الشاكرين ، ولكنه لم يك يشعر بتلك الطمأنينة التي كان يحسها كلما طاف بالبيت ، ولم يك يشعر بذلك الخشوع الذي كان يملأ صدره كلما وقف بين يدي الآلهة ، وتمتم بشكره فكان شكرا فاترا لا حماس فيه ، وعنده أنه إذا خاطب الآلهة خاطبها بصوت يتهدج رهبة ، يدل على الإيمان العميق ، فأنكر نفسه ، وحاول أن يرد دعيتها وطمأنيتها فلم يفلح ، وأفلت منه زمام أمره ، وراح يتساءل : لم يعبد هذه الآلهة ؟ ولم يكن لها الخشوع والولاء والحب ؟ فألقى نفسه لا يدرى . وراح يتساءل : ما الذي رآه من عظمة هذه الآلهة ، وما الذي لمسه من قدرتها ؟ إنه لم ير شيئا ولم يلمس شيئا ، فلم يعبدها ؟ يعبدها لأنه شب فرأى القوم يعبدونها ، يحبها لأنه شب فألقى القوم يحبونها ، يخضع لها لأنه شب فإذا القوم

يخضعون لها . وهنا تذكر أنه من أصل حبشى ، وأن أبويه قد حملا من الحبشة وييعا في مكة . فولد بين آلهتها لا يعرف آلهة غيرها ، فلو أنه ولد بالحبشة لعرف آلهة أخرى ، ولعبدها ، ولأحبها ، ولخضع لسلطانها . وراح سيال الفكر ينتقل به من حال إلى حال ، ونشبت معركة بينه وبين نفسه ، انجلت عن ترزعزع إيمانه والتشكك في عقيدته .

وذهب بلال إلى منازل بنى جمح ، ووقف على قيد خطوات من أمية بن خلف وقبيلته ، ينتظر كلمة شكر على ما عاد به من أرباح وما صادفه من نجاح في رحلته ، ولكن القوم شغلوا عنه بتوزيع ما جاءهم به من الشام ، ولم تنفرج شفة من الشفاه بكلمة حلوة تنسيه بعض ما كابده في رحلته من نصب ، أو تكافئه على بعض ما بذله من جهد واجتهاد ، فأحس خيبة أمل مريرة ، فطأطأ بصره وانصرف حزينا كئيبا ، واعتكف في مكان منعزل يفكر في حاله ، فأحس ضيقا وتبرما بحياة الاستعباد وتمنى لو أنه كان حرا يفعل ما يريد لا ما لا يريده مولاه ، ويذهب حيثما شاء لا أن يبقى مقيما إلى أن يأمره بالظعن سواء . وأطلق عنان نفسه للأحزان ، فجسمت له الأوهام شقاءه ، ورأى مستقبله أظلم من حلقة الليل ، فغمغم في يأس : « كتب على أن أعيش عبدا وأموت عبدا ، لا أرى إلا بعيونهم » .

ولا أسمع إلا بأذانهم ، ولا أنطق إلا بأفواههم ، ولا أعبد
إلا آلهم . فتهتف به صوت الرضى : « لم هذا التبرم
أيها العبد الجحود ؟ لقد ميزك عن عبيده جميعا ، ألبسك
مما يلبس ، وأطعمك مما يأكل ، وأجلسك بين أصفياه
وخلانه . وأتمنك على أمواله وتجارته ، وأحبك شباب
القبيلة حبهم لأنفسهم ، فأصبحت بلالا المفضل ، بلالا
المدلل » . وكادت نفسه تصفو وتطمئن ولكن صاح به
صوت الغضب : « يا للعبد الغبى ، كاد يصدق أوهامه ،
ويعتقد أنه سيد لا مسود ، لا فرق بينه وبين أمية
إلا لفظا ، إنك أيها الواهم تحفه تقنى للتفاخر بها ،
وتكرم ويعتنى بها ما دامت سليمة ، حافظة لرونقها وقيمتها ،
فإذا ما تكسرت هانت وصارت نسيا منسيا ، إنه ما قربك
إليه ولا أجلسك بين خلانه إلا لجمال صوتك ، فيابؤسا
لك إذا ما ذهب هذا الصوت ، ويا للشقاء الذى ينتظرك
إذا ما بلغك الكبر . ستصبح عبدا منبوذا كبقية العبيد
المنبوذين ، فلا ثياب جيدة ، ولا طعام حسن ، ولا جلوس
بين السادة . وسيزول عنك الشباب ، ولن تخرج لتجارة
أو بيع ، فلا يخرج للتجارة إلا الشباب الجلد » وأطرق بلال
يفكر ووقع فى نفسه حزن ثقيل . وراح فكره يطوف به
عوامل من البؤس والشقاء ، وقطع عليه تفكيره أصوات

الشباب المقتربة ، فرفع رأسه فرآهم يدرجون نحوه ، ولما
لحوه تصايحوا :

— غننا يا بلال واطربنا بحلو نعماتك ، فقد حرمننا
عذب صوتك أمدًا خلناه دهرًا ، غننا يا بلال صوتًا ،
غننا .

لا . ما كان لبلال أن يعتذر ، أو يستطيع أن يرفض ،
فمتى كان للعبد أن يعتذر أو يرفض ، وما كان له إلا أن
يلبى نداء سادته ولو ضاق بما يطلبون . فليغن ولو كان
متوَعك المزاج ، فليغن ليطربهم وليدخل عليهم السروز
وإن كان هو في حاجة إلى من يواسيه ويخفف عنه بعض
أشجانه وأحزانه .

وغنى بلال فأسمعهم ذوب نفسه ، واستحالت أحزانه
أنعامًا فياضة بالعواطف ، جياشة بالإحساسات ، هزت
مشاعرهم ، واستمر يرسل النغم الشجي ، ولم يتركهم
إلا وهم سكارى بخمر ألحانه .

حر وعبد

في هجعة الليل والناس نيام ، فتحت دار من دور
بنى تيم ، وخرج رجل خفيف العارضين نحيف الجسم ،
مسترخ إزاره على حقويه ، دقيق الساقين ، خفيف اللحم
في سائر جسمه . وأغلق الباب خلفه في هدوء ، وسقط نور
القمر الباهت على وجهه ، فكان وجهها أبيض معروقا ، ناتئ
الجهة ، غائر العينين . وانطلق الرجل وهو خائف في
مشيته ، يبدو عليه الحذر في لفتته ، حتى بلغ حى بنى
جمع ، فانتقل إلى دار أمية بن خلف . ودار حولها حتى
بلغ كوة تطل على حجرة العبيد ، فاقترب من الكوة وهو
يتلفت حوله ، وهتف بصوت خافت :

— بلال .. بلال .

وأحس برعدة خفيفة تهز جسمه هذا ، والاضطراب
يسيطر عليه ، وسأل نفسه ما يفعل وما يقول إذا ما فاجأه
أحد في هذا الموقف المريب الذي يضافى عليه الليل
شكوكا ؟ فلم يهتد إلى ما يفعل ولا إلى ما يقول ، فهم
بالعودة من حيث أتى ، ولكن رغبة الإفضاء إلى بلال
بمكنون سره كانت أقوى من رهبته ، فأقنع نفسه بالهتاف

مرة أخرى قبل أن يعود ، وارتفع صوته بالهتاف :

— بلال .. بلال .

ووقف ينتظر في قلق ، ثم بلغ مسمعيه صرير باب
فأسرع نحوه على حذر ، ولمح بلالا يتلفت باحثاً عن
مصدر الصوت فهمس :

— بلال !.

فدرج بلال نحو الشبح الذي لمحّه منتصباً في جوف
الظلام ، ولما صار أمامه وجهاً لوجه تطلع إليه وغمغم :
— من ؟ أبو بكر ؟ وما جاء بك الساعة ؟.

— نبأ هام .

— أو ما كان من المستطاع إرجاؤه إلى الغد بدل أن
تجشم نفسك هذا التعب ؟.

— لا يا بلال فما كنت بمستطيع أن أفضي به إليك
تحت سمع سيدك وبصره ، وما أحب أن يصل إلى سمع
من يشي بك عند مولاك .

— وما هذا النبأ الهام ؟.

— ظهر نبي هذه الأمة !

— نبي هذه الأمة ؟.

— أجل يا بلال .

— ومن هو ؟.

— محمد بن عبد الله .

— وكيف علمت ؟ .

— سرى همس في مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي يدعو سرا إلى توحيد إله واحد ، فاتجهت إليه وقلت له : « يا أبا القاسم ما الذي بلغني عنك ؟ » فقال : « وما بلغك عني يا أبا بكر ؟ » قلت له : « بلغني أنك تدعو لتوحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله » فقال : « نعم يا أبا بكر ، إن ربي عز وجل جعلني بشيرا ونذيرا وجعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعا » فقلت له : « والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمتك ، وحسن فعالك . مد يدك فأنا أبايعك » . فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فبايعته .

— أصدقته سريعا ؟ .

— أجل يا بلال .

— قد يتغنى من وراء ذلك جاها أو مالا .

— لا يا بلال ، إني أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، وأنه لا يغنى من وراء ذلك جاها ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال خديجة الطائفة ما يغنيه عن ذلك قزونا ، وله من نسبه في قريش مكان الذروة والسمام .

— إلام يدعو ؟ .

— يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار

الصماء ، إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء
المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء
والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته يا بلال لا تفرق
بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ،
وتخلي الطريق بين العبد وربّه يدخل إليه بغير واسطة ،
ويقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التواضع والتواضع ،
والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته
يا بلال لهناء الدنيا وسعادة الأبد .

فأطرق بلال يفكر ، وراح أبو بكر يتفرس في وجهه
لعله يستشف أثر مقالته في نفسه ، فساد السكون بينهما
هنيهة ، وطال تفكيره ، فخرج أبو بكر من هذا الصمت
المسيطر عليهما ، قال :

— ما رأيك يا بلال ؟ .

— إنى يا أبا بكر لا أدري ما أقول .

— لا تدري ما تقول ؟ خلتك يا بلال ستفرح لظهور
هذا الدين فرحى لظهوره ، بل حسبتك يا بلال ستسرب به
أكثر من سرورى . سوى هذا الدين بينكم وبين ساداتكم
وجعلكم أندادا لهم أمام الله ، ثم تقول يا بلال لا أدري
ما أقول ؟ أين دين قريش الذى لا يقبله عقل من هذا
الدين ، القويم ؟ وأين آلهة قريش المتعددة الأسماء المعدومة
الأفعال من الإله العظيم الذى يدعو محمد لعبادته ؟ تلك

أحجار صماء وهذا جل شأنه حي صمد ، واحد قهار ،
يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير .

— إني يا أبا بكر لا أقارن بين ما جاء به محمد ودين
قريش ، فقد تشككت في قدرة الآلهة جميعا إثر عودتنا
من الشام ، ولكن تعلم أنه من الصعب على النفس أن تهجر
ما كانت تدين به وتعتق دينا جديدا بين عشية وضحاها ،
وإن كان الدين الجديد أفضل وأعظم .

— قد يكون هذا القول مقبولا من قرشي يخشى من
تسفيه أحلام آبائه وأجداده ، وأما أن يصدر منك فإنه
شيء عجاب . فما آلهة قريش بآلهة آبائك ، فعلام التثبيت
بها والخوف من تحطيمها ؟ .

— فلتحطم جميعا .

— فلم التردد ! قل يا بلال : أشهد أن لا إله إلا الله ،
وأشهد أن محمدا رسول الله .

فصمت بلال قليلا ثم قال بصوت فيه هزة :

— إى والله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا
رسول الله .

فشاع الرضى في نفس أبى بكر ، وانبسطت أسارير
وجهه . وقال لبلال :

ب سأنتظرك في دارى غدا مساء ، وسنذهب إلى
محمد لنبايعه .

وسلم أبو بكر وانصرف . ووقف بلال يرقبه حتى
غمره الظلام ، فعاد إلى الدار والدين الجديد يملأ نفسه
ويملك عليه كل مشاعره . عاد إلى الدار وهو لا يدري أنه
سيعذب في هذا الدين ويضطهد من أجله ، ويمتحن فيه
امتحانا شديدا رهيبا يجعله سيد الممتحنين ، وإمام المعذنين
الصابرين .

وقابل بلال محمدا وبأيعه ، وفتنه الدين الجديد
فأصبح يختلف إلى محمد حينما تغفل أعين الناس ، في قافلة
النهار حينما وتحت ستار الظلام أحيانا ، وراح يتعلم تعاليم
الدين الجديد ، ويتأدب بآدابه ، وينهل من معينه الذي
لا ينضب . وأثرت روح محمد القوية الفتيّة فيه ، فحولته
من عبد خاضع ذليل إلى إنسان كامل له مثل عليا يعمل على
تحقيقها ويسير في طريقها قدما . لا يشنيه تعذيب ولا يحوله
وعيد .

خرج بلال من عند محمد قبل أن تدب الحياة في مكة ،
وقبل أن يخرج الناس من دورهم ، واتجه إلى الكعبة
ليطوف قبل العودة إلى دار مولاه ، فلما دخل وجد خلوة
من البيت فراح يدور على الآلهة يتقرس فيها ويتساءل :
كيف كان يعبد هذه الأصنام الصماء من قبل ؟ وكيف كان
يتقرب إليها ينتظر منها الخير وهي لا خير فيها ؟ كيف كان

يفرحه رضاها أو يغمه غضبها ، وهي لا تدري ما الرضا
وما الغضب ؟ كيف لم يهتد من قبل إلى أنها من صنع
إنسان . وأنها أحقر من أن تسمع رجاء أو تجيب دعاء ؟
وقال في نفسه : « أكانت الدموع تنهمر من عيني عندما
كنت أناجي هذه الآلهة ؟! أكنت أرتجف فرقا لما كنت أقف
بين يديها ؟! لكم كنت غيا ! يا للوهم الخادع جسم
الخيال فجعله حقيقة ، وألبس القزم ثوبا فضفاضا فصوره
عسلاقا رهيبا ، وأضفى على الأحجار ثوبا يراقا فجعلها آلهة
قادرة مهيبة ؛ يا للوهم الخادع الذي جعل القوم يتكبرون
الطريق القويم وهم يوقنون أنهم على الصراط المستقيم ؛
يا للوهم الخادع الذي يسدل على أبصار الناس أحجبة
كثيفة تجعلهم لا يفرقون بين النور والظلام ، وبين الهدى
والضلال » . وبلغ صنم هبل فتطلع إليه وقال : « أنت
أيها الإله العاجز ! أين كنت يوم كسرت يدك ؟! ولم تركتها
تكسر ؟! ، وكيف قبلت كبرياؤك أن يعوضك عبدك الإنسان
الضعيف خيرا منها يدا من ذهب وهاج ؟ يا ذا اليدين
ولا يد لك ، ما تستطيع أن تفعل لو لطستك لطة أو صفعتك
صفعة ، أو بصقت في وجهك ؟ » وبصق بلال في وجهه
وغمغم : « إنك لا تستحق ما أضيعة معك من وقت أيها
العاجز . سيأتي اليوم الذي يدك فيه عنقك ولا تجد من
يصنع لك بدلا منه » .

وانصرف بلال وهو لا يدري أن ثم رجلا كان يرقبه ،
شاهد ما صنع بإلهه ، فانسل خلفه يعد عليه حر كاته ،
ويحصي سكناته .

أحد ٠٠ أحد

ترك أمية بن خلف داره وكان القلق والاضطراب
باديين على وجهه ، وانطلق إلى دار الندوة ليقابل أبا جهل
وأبا لهب وأشراف قريش ، ويشاورهم في أمر محمد
ابن عبد الله الذي سفه أحلامهم وأحلام آبائهم ، لعلمهم
يهتدون إلى ما يقضى على هذه الدعوة التي استفحل
خطبها واشتد خطرها .

أقلقت الدعوة الجديدة أمية ، وأقضت مضجعه بعد أن
دعاهم محمد إلى داره وعرض عليهم الإسلام ، لا يخشى
بطشهم ، ولا يخاف بأسهم ؛ ولقد زاد من قلق أمية وقوف
محمد على الصفا يدعو معشر قريش لدينه الجديد جهارا .
لا يحفل بأحد ، ولا يفت في عضده ما لقيه من إعراض منهم
بالأمس ، ومما زاد في قلق أمية استجابة بعض نفر لمحمد ،
ودخولهم فيما يدعو إليه ، وبينما كان أمية في الطريق لمح
صديقه عبد الرحمن بن عوف فناداه :
— يا عبد عمرو .. يا عبد عمرو .

فلم يجبه عبد الرحمن ، واستمر في طريقه على الرغم
من أن صوت أمية قد صك أذنيه ، وارتفع صوت أمية
بالنداء ثانية ، فلم يخفل به عبد الرحمن ؛ فأسرع أمية
خلفه ، ولما لحق به قال له :

- أفسدك محمد علينا ، فتركت دين آبائك ودخلت
فيما يدعو إليه ؟ وأدعوك بعبد عمرو فلا تجيب ، أرغبت
عن اسم سماكه أبوك ؟

- أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

- إني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئاً
أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا
فلا أدعوك بما لا أعرف .

- يا أبا على ؛ اجعل بيني وبينك ما شئت .

- فأنت عبد الإله .

- نعم .

وانطلقا يتجاذبان أطراف الحديث ، فكان أمية يعتب
على عبد الرحمن تركه دين الآباء والأجداد ، وكان
عبد الرحمن يدعوه إلى الدين الجديد . وحاول كل منهما
أن يطوى صاحبه فلم يفلح ، وارتفع الجدل بينهما واشتد ،
حتى بلغا دار الندوة فاستأذن أمية ودخل .

واكتمل عقد أكابر قریش وأشرافها ، فراح أمية

ابن خلف وأبو جهل يهاجمان محمدا ، ويسخران من دعوته
ويسهبان في خطرهما ، باذلين ما في وسعهما لتأليب القوم
عليه ، وإيغار صدورهم ، وما كانا في حاجة إلى التهجم
أو السخرية أو الإسهاب ، فإنهم جميعا لمحمد كارهون ،
ومن دعوته يرتجفون ، يعلسون علم اليقين أن في ظهوره
احتجابهم ، وفي ارتفاعه هبوطهم ، وفي انتصاره زوال عزهم
وانقلاب الزعامات من أيديهم ، فراحوا جميعا يفكرون فيما
يفعلون لدرء هذا الخطر الزاحف الذي يهدد بتقويض
سلطانهم ، ويزلزل الأرض تحتهم ، وبينما كانوا يديرون
قداح الرأي بينهم ، وبينما كان أمية يحرضهم على المسلمين ،
ويدعوهم إلى أخذهم بالشدة ، دلف إليه رجل وأسر إليه
ببضع كلمات ، فتغيرت هيئته ، وانقلبت سحته ، وتقلص
ما بين حاجبيه ، ونظر إلى الرجل والغضب يتطاير من عينيه ،
وقال :

— أوافق أنت ؟

— تمام الثقة .

— رأيتك يختلف إلى محمد ؟

— رأيتك مرارا .

— ما كان هذا ليخطر على قلبي .

— بل رأيت ما هو أدهى من ذلك وأمر .

— وما رأيت ؟

— لا يستطيع لسانى أن يجرى بما رأيت عيناي ، ليتها
لم تريا شيئا .

— قل ما رأيت .

— رأيت .. رأيت ييصق في وجه إلها العظيم هبل .
فصاح أمية صيحة ملؤها الغضب وقال :
— أفعل ذلك ؟

— أجل . .

— يا للعبد الفاجر .

وأصبح صدر أمية كمرجل يعلو بالقت والغضب ،
وأحس حاجة إلى البطش لينفس عن صدره بعض ما أغمه ،
فهم بالقيام ليذهب من فوره إلى ذلك العبد يصب عليه
جام غضبه ، ويعذبه عذابا ما ذاق مرارته أحد ، والتفت
إليه أبو جهل ، فقرأ في وجهه ما يعتلج في صدره ،
وما تضيق به نفسه فقال له :

— خيرا يا أبا على ؟

— بل شرا مستطيرا .

— ما هنالك ؟

— عبدى بلال .

— ما به ؟

— كفر باللات والعزى ودخل فيما يدعو إليه محمد .

فظهر الغضب على وجه أبى جهل ، وأطرق هنيهة ،
ثم رفع رأسه وقال :

— وعلام عولت ، إنها لفتنة كبرى .

— الويل للعبد إن صدق ما بلغنى عنه .

— بل الويل لنا إن تركنا محمدا يبعث دعواه هذا

وهناك يفتن الضعفاء والعبيد ، ويجمع حوله العصاة

الكافرين بآلهة الآباء والأجداد ؛ لقد انسابت دعوته في

غفلة منا ، ولكننا أفقنا قبل أن يبلغ مأربه ، فما أمامنا إلا أن

نعلنها حربا مذكارا عليه وعلى أعوانه لا هوادة فيها

ولا لين ؛ اذهب يا أمية إلى عبدك الحقير هذا وأدبه ، ونكل

به نكالا شديدا ليكون عبرة لأولئك الأذلاء الذين

توسوس لهم نفوسهم الخبيثة الخروج على ديننا ، اذهب

يا أمية وليكن عذابك شديدا ، ونكالك رهيبا تقشعر من

هوله أبدان الصابئين ؛ اذهب يا أمية ولا تأخذك

فيه رافة ، وانتزع من قلبك الرحمة ، فما استحق أمثال

هؤلاء الكافرين رحمة أو شفقة ؛ اذهب يا أمية ، اذهب .

أما أنا فلن يهدأ لى بال حتى أكتم أنفاس هذه الدعوة في

مهداها ؛ ولن تقر لى عين حتى أعيد إلى آلهتنا هيبتها التى

نال منها محمد وشرذمته . أما أنت يا محمد فساناصبك

العداء جهارا ، ولن تكون قرابتك منى شفيعة لك عندى ،

مستدرة العطف عليك والشفقة لك ، بل سيتحجر قلبى ،

ولأذيقنك من العذاب ألوانا ، فقد فرقت بين الأب وبنيه .
والأخ وأخيه ، وجئتنا بعار ما جاء به أحد قومه من قبل .
ولم يطق أمة البقاء في مجلسه أكثر من ذلك ؛ فانتقل
إلى داره وسورة الغضب تسيطر عليه ، وصوت أبى جهل
يرن في أذنيه . وقصد حجرة بلال ووقف على بابها يسترق
السمع ، فقرع أذنيه صوت بلال وهو يترنم بصوت عذب
خفيض ، كله حلاوة وكله خشوع . وأرهف أذنيه فسمع
كلأما ما سمع مثله من قبل قط ؛ فما هو بالشعر وما هو
بالسجع . فغمغم : « هذا ما سحر العبد . هذا قرآن محمد
ولا ريب . برح الخفاء وبان المستور ، كفر بلال باللات
والعزى وتبع هواه » . وهنا ثار بركان الغضب في صدره ،
فدفع الباب بشدة ، واندفع كالعاصفة إلى داخل الغرفة ،
فألقى بلال نفسه أمام سيده ، فتطلع إليه فأنكره ، وعرف
الغضب في وجهه فنبين أن أمره قد افتضح ، فلم يجزع ،
ولم يرتجف بل حلت السكينة في قلبه ، وانتظر ما ينزل به
من بلاء في هدوء .

— ما كنت تقرأ ؟

— كلام الله .

— أى إله ؟ ، ومتى تكلم الله ؟

— أنزل على عبده الكتاب والحكمة .

— كفى هراء !

— إنه الحق وربى .

- ومن ربك هذا ؟
- رب السماوات والأرض وما بينهما سبحانه .
- كف أيها العبد القذر ، وإلا كتمت أنفاسك .
- فاستطرد بلال ولم يحفل به :
- خالق كل شيء ، القادر على كل شيء .
- يا صابىء ، أكفرت بآلهتنا واتبعت رجلا مسحورا ؟
- ما كفرت ، بل هدانى الله إلى الصراط المستقيم .
- فثارت ثائرة أمية ، ولم يطق صبرا ، فلطم بلالا لكمة شديدة وصاح به :
- ومتى كان للعبد أن يتبع هواه أو يتخذ له إلها غير آلهة سادته ؟ إنك عبدى ، ملك يمينى ، أفعل بك ما أريد ، وتفعل ما أريد ، وتعتنق ما أعتنق ، وتدين بما أدين .
- على رسلك يا مولاي ، إني أعلم علم اليقين أنى عبدك ، وأنى ملك يمينك تفعل بى ما تريد ، وأفعل ما تريد ، ولكن اعلم يا مولاي أن جسدى فقط هو ما تملك ، وما تستطيع أن تملك ؛ أما عقلى ، أما وجدانى ، أما ما يكنه صدرى ، أما حبى وبغضى ، فهذا جميعه لى ، لى وحدى ، لا يستطيع كائن من كان أن يملكه أو يتحكم فيه ، ولا يستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من الحول والطول أن ترغمنى على أن أعتقد ما لا أعتقد ، أو أدين بما لا أدين به قسرا . ولن تستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من

— ٢٨ —

الحول والطول أن تحولني عما اعتنقت ، أو ترغمني على ترك دين الله الذي هداني إليه ، فلا تحاولن يا سيدي عبثا . ولا تركبن شططا .

— عد يا بلال إلى رشدك ، وإلا ابتللت روحك الخبيثة التي أفسدها محمد من بين جنبيك .

— ما أفسدها محمد ، بل هداها سواء السبيل .

— أتترسل في غيبيك ، وتعصى أوامري ؟

— إن عصيت أوامرك فقد أطعت الله .

— أتكهننت يا بن السوداء ؟ واللات والعزى لأعذبك حتى تترك هذا الدين .

— والله لو قطعتني إربا إربا ، وأزهقت روحي نفسا نفسا ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته .

— ما كان هذا — يا لثيم الطبع — طبعك . لقد كنت أطوع لى من بناني ، حتى إذا ما أطعمتك جيد الطعام ، وألبستك غالى الثياب ، جئت اليوم تعصيني ، ولكن لا غرابة في ذلك فأنت عبد ابن عبد .

— لا تسن على إطعامي وكسوتي ، فما أطعمتني الله ، وما كسوتني الله ، بل فعلت ذلك لما أقوم لك به من خدمات جليلات ، ولما أدخله على أصفياك وندمائك من سرور . وقد أصبحت يا مولاي لا أحفل بطعامك الجيد

ولا بثيابك الغالية . فما علىّ إن أنا جعت يوما وشبعت
يوما في هذه الدنيا الفانية ؛ إن كل ما أبغى هو رضا الله ربي
حتى أفوز بجنتك عرضها السماوات والأرض .
— أهذا ما علمك محمد ؟ سنرى يا بلال حتام تثبت
على هذا .

— جتى تصعد روحى إلى خالقها .
— سنرى ..

ودرج إلى الباب كليث هائج ، وكان الغضب والحنق
ينعكسان على وجهه ، وأطل برأسه من الباب وصاح على
الخدم ، فخفوا سراعا ووقفوا أمامه خاشعين ينتظرون
أوامره ليصدعوا بها ، فصاح فيهم وهو يشير إلى بلال :
— انضوا عن هذا الكافر ثيابه ، وألبسوه الأسمال
البالية ، وقيدوه ليعرف قدره .
فاتجه الخدم صوب بلال لإتفاذ ما أمروا به ، فالتفت
إلى أمية وقال بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان وثبات :
— مهلا ! ها هي ذى ثيابكم الغالية ، فلا حاجة لى
فيها .

وخلع ثيابه ولبس ما قدم إليه من أسمال ، ثم قدم إليهم
يديه فقيدوهما ، ووقف ينتظر ما يحل به من عذاب وما ينزل
بساحته من اضطهاد بجنان ثابت ، ونفس راضية مرضية .
ولمح أمية ثباته واطمئنانه فازداد كرده ، وتضاعف غيظه ،

وعض على أنيابه حتى سمع صريها ، وتقدم منه والغضب
يطلق على وجهه ، ووضع في عنقه حبلا من مسد ، ونظر
إليه نظرة هائلة أودعها كل ما يعتلج في صدره من الحنق
والمقت ، ولو أنه صوبها إلى غير بلال لارتعدت فرائصه
فرقا ، ولكن بلال وقف ثابتا لا يتزعزع ، وغمغم أمية :
- سيكون عذابي رهيبا .. وسترى يا بلال ..

ثم جذب الحبل جذبة شديدة آلمت بلالا ، ولكنه لم
ينبس ، وسار أمية وهو خلفه صامت ، ونادى صبيان
القبيلة ودفع به إليهم وأمرهم أن يعدوا به بين أخشبي
مكة ، ليكون عبرة للصائبين الكافرين باللات والعزى .
وخرج الصبيان بفريستهم يتصايحون ، وراح الناس
يتساءلون عن النبأ ، فكان الجواب : إنه كافر باللات ،
ناكر للعزى ، صابىء عن دين القوم . فكانوا يرشقونه
بأقذع السباب ، وينعتونه بأقبح النعوت ، وهو ساكن
ثابت ، لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إليهم ، كأن الأمر لا يعنيه ،
ولما اقترب الموكب من الكعبة ، ارتفع تصايح الناس ،
فراح بلال يردد :
- أحد .. أحد .

واستمر الموكب في طوافه ، والصبيان في هتافهم
وصياحهم . وبلال في ترديد شعاره : « أحد .. أحد » حتى
تصرم النهار ، ونال التعب والكلال من الصبيان ، فعادوا به

إلى الدار ، وهو أصرم في الحق مما كان ، موطدا العزم
على أن يتحمل صنوف العذاب ، فقد هان بكل شيء في
عينيه بعد أن رشد وذاق حلاوة الإيمان . وبلغ أمية
عودة بلال بعد انقضاء نهار مضمن شديد ، وجهت إليه فيه
شتى الإهانات ، وتجرع فيه كأس العذاب ، فاتجه إليه
وهو يرجو أن يكون ما صادفه في يومه من بلاء . وما ناله
من عناء ، رادعا له وزاجرا . ولكنه عندما دخل عليه لم
يقف له بلال ولم يحفل به ، فتغاضى أمية عن ذلك . وأقبل
عليه وقال له في صوت فيه لين :

— إيه يا بلال ، عسى أن تكون قد ثبت إلى رشدك .

— أحد .. أحد .

— لا توغر صدرى يا بلال عليك أكثر من ذلك ، وإلا

نكلت بك نكالا شديدا .

— أحد .. أحد .

— لا تتماد يا بلال ، واعلم أن روحك عندي

أصبحت لا تساوى شروى نقيير .

— أحد .. أحد .

— يا بن السوداء كف عن ذلك ، وإلا قتلتك ككلب

قذر .

— أحد .. أحد .

— واللات والعزى لأقتلك .

وهجم أمية عليه وقبض على عنقه يسيديه ، وراح
يضغط عليه برهة ، ثم تركه فجأة وقال له :
— لا ، لو قتلتك لأرحتك من عذابي .. لا ، لن أنيلك
هذه الراحة أبدا .

ودفعه دفعة شديدة فتدحرج على الأرض ، واتجه أمية
نحو الباب ، فصاح بلال قبل أن يخرج :
— أحد .. أحد . والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم
منها لقتلها .

وكرت الأيام ، وترادف العذاب على بلال وتتابع ، وهو
صامد ثابت لا تلين له قناة ، ولا ينال أمية مبتغاه .
واستعان بأبي جهل في تعذيبه فأبأ بالخيبة والفشل ، غزاد
غضبهما على الأيام .. وفي يوم جلسا يتشاوران فيما يفعلانه
بهذا العبد الذي أذلهما ونال منهما ؛ قال أمية لصاحبه وهو
يحاوره :

— أذقناه صنوف العذاب فما تزعزع ولا حاد عن
طريقه ، ولا نطق بما نشتهي ، فما أماننا إلا قتله والاستراحة
منه ومن عناده .

— كيف تشير بقتله يا أمية ؟ ألا تعلم أن قتله دليل
عجزنا ، وآية ضعفنا ؟

— وما نفعل به إذن ؟ ضاق صبري عن احتماله .

- نستمر في تعذيبه .
— حتام ؟
— حتى يكفر بمحمد ورب محمد ..
— إنا يا أبا جهل نتعلق بخيوط واهية ، ما رأيت أحدا
من قبل يصبر على العذاب صبر ابن السوداء هذا .
— لا تقنط ، فلن يحتمل عذاب اليوم .
— وما تفعل به ؟
١- يومنا قانظ شديد الحرارة ، تلفح شمس الوجوه ،
فلألبسناه درعا من حديد ، ولأقيدناه في بطحاء مكة تحت
نار الشمس المتقدة ، فلن يستطيع معها صبرا .
— أتظن ذلك ؟
— بل إن صوت توسله ليرن في أذني ، يطلب منا العفو
والغفران .
— افعل به ما تشاء .
وجيء ببلال مقيدا ، وأضجعوه على الرمال ، وتركوه
للشمس وانصرفوا ، فراحت الشمس تقذفه بسهامها
فيتلوى صابرا ، وجعلت الرياح تزجي إليه غبارا ساخنا
ملتهبا ، واستمر لدع الشمس له ، وتقصد العرق منه ،
وتسرب إلى عينيه ، فزاده ذلك بلاء على بلاء ، ولكنه ظل
صابرا لا يجزع ولا يقنط ، ينتظر الفرج من الله بقلب عامر
بالإيمان ، ممتلىء باليقين .
(بلال مؤذن الرسول)

وأقبل أمية وأبو جهل وخلفهما أتباعهما ليروا ما نزل
بفريستهم من بلاء . وتقدم أبو جهل من بلال ممنيا النفس
بسماع ضراغته وتوسلاته واستغفاره ، وما إن رأى بلال
أبا جهل وأميه وأذنا بهما حتى تيقظت نفسه ، وشحذت
عزيمته وازدادت مضاء ، ومال أبو جهل عليه ، وقال :
— هيه يا بلال .

فهتف بلال : « أحد .. أحد » .

وما صك ذلك أذن أبي جهل حتى اربد وجهه ،
وضاق صدره ، ورفسه رفسة شديدة وغمغم : « أما زلت
على غيك يا بن السوداء ؟ » وتلفت حوله فرأى صخرة
عظيمة ، فأمر القوم بوضعها فوق صدر بلال . ووضعت
الصخرة ، فازداد عليه الكرب . وازداد مع ذلك صلابة
وعنادا ، وراح يهمس بصوت خفيض :
— أحد .. أحد .

وارتسم الألم على وجهه ، وبان عليه الجهد ، وراح
يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وجعل يئن ويتوجع ، وأميه
وأبو جهل وأتباعه يرقبون ما هو فيه من بلاء بقلوب قدت
من الصخر . وكانوا كلما ازداد كربهم ، ازداد فرحهم ؛
يحسبون أن قوة احتماله ستتهار عما قريب ، وأنهم
سيفوزون منه بما يريدون . وتحركت شفتاه ، فأرهموا
السمع جميعا ، ليسمعوا منه ما يحبون ، ليسمعوا منه سب

محمد وإله محمد ، كما سمعوا ذلك من إخوانه المسلمين
المعذبين قبله ، ولكن تحركت شفقتاه بما يكرهون :
— أحد .. أحد .. إن يقتلوني فلم أكن لأشرك بالرحمن
من خشية القتل ، فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى
نجنى ثم لا تبل .

أبعد هذا لا يكفر بمحمد وإله محمد ؟! ، أبعد كل هذا
العذاب يناجى ربه ويطلب عونه ، لقد انقطع آخر خيط
للأمل في أن ينالوا منه بعض ما يحبون ، فما هم بمستطيعين
أن يتركوه بعد هذا ليكون دليلا على عجزهم وفشلهم ؛
ونظر أمية إلى أبي جهل وقال :

— ألم أقل لك ألا فائدة من تعذيبه فهو عبد كثير العناد
لا يلين ، فلم يبق أمامنا إلا قتله .
فأطرق أبو جهل يفكر ولم يجر جوابا .

وخرج أبو بكر من عند النبي في الهجرة وأغذ في
السير ، وراحت الشمس الحامية تلفح وجهه ، وتفصد
العرق منه غزيرا ، وضافت أنفاسه من شدة الحر ، ولكنه
لم يحفل بذلك كله ، فقد كانت نفسه في شغل عن كل ذلك ،
كانت فكرة تعذيب بلال واحتمال قتله تسيطر على كل
حواسه فتشغله عما عداها . ثم أشرف على ساحة التعذيب ،
فرأى أناسا يلتفون حول صخرة عاتية يصيحون ويصخبون ،

فأسرع نحوهم ، ولما بلغهم ، رأى بلالا تحت الصخرة يئن
ويتوجع ، ويفغم بين آونة وأخرى :
— أحد .. أحد .

فكادت الأرض تميد تحت قدميه ، وجرى الدم حارا
في عروقه ، وامتلا صدره بإحساسات شتى متباينة ، فبقدر
ما فاض بالشفقة على بلال والثناء له ، بقدر ما فاض بالحنق
على أمية وأبي جهل ، وبالمقت لهما . ولم يستطع أن
يتمالك نفسه ، أو يتحكم في عواطفه ، فأسرع إلى أمية
وصاح به ، غير هباب من تلك الجموع الثائرة المتعطشة
إلى تعذيب المسلمين والتنكيل بهم :

— حتام تعذب هذا العبد ؟

— وما شأنك أنت ؟ إنه عبيدى ، أعذبه متى أشاء
وأطلقه أنى أشاء .

— ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبى قحافة ، إنه يعذب بسبيك ، فما
أفسده سواك .

— ما أفسدته ، بل هديته سواء السبيل .

— كفى ودعنا .

— لا أدعكم حتى تطلقوه .

— لن نطلقه حتى يعود في ديننا أو يموت .

- لن يعود في دينكم أبدا ، فلن يبيع الهدى بالضلالة .
ولن يعود إلى الظلام بعد أن رأى النور .
— أجئت تلتمس الصفح عنه ، أم جئت تسبنا ، وتعييب
ديننا في وجوهنا ؟
— بل لأقول لك إنه سيبقى على دينه حتى يموت ،
وفي موته فقد لثمنه .
— أأبقيه وأطعمه وأكسوه ليسب آلهمتا ، ويفتن
صغارنا ؟
— إني على استعداد لشرائه .
— أتشتريه ؟
— أجل .
— كم تدفع فيه ؟
— ما تطلبون .
— خمس أواق ذهبا .
ودفع أبو بكر ما طلبوه ، فالتفت أمية إليه وقال :
— لو أبيت إلا أوقية لأخذه .
— لو أبيت إلا مائة أوقية لأخذه .
وأسرع أبو بكر نحو الصخرة ، وراح يزيحها عن
صدر بلال ، وعاوناه بعض الواقفين . ونهض بلال ووضع
يده في يد أبي بكر وانطلقا ، وفي الطريق التفت بلال إلى
أبي بكر وقال :

— إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني ، وإن
كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعمل الله .
ثم بلغا منزل الرسول فاستأذنا ودخلا ، ولما رأى النبي
بلالا بان السرور على وجهه ، والتفت إلى أبي بكر وقال :
— الشركة يا أبا بكر .
— لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

أغنياء وفقراء

أطلق سراح بلال ، وتصرفت أيام استرقاقه ،
وما انقضت أيام اضطهاده وتعذيبه ، فقد راحت قريش
تطارد المسلمين ، وتفتن في إيقاع الأذى بهم . وزال ما كان
فيه من نعيم عند أمية ، وأقبل التشرد والجوع بعد الإقامة
والشبع ، وأقبل شظف العيش بعد الرفاهية والرغد ،
فما نال هذا التبدل من نفس بلال ، وما التفت إليه فقد
كان صدره يعتلج بإحساسات أخرى أنسته نفسه وماضيه ،
كان يعتلج بالأمل الذي نفخه رسول الله فيه ، وأضحى له
هدفا يسعى إليه ، لا يثنيه عن بلوغه اضطهاد أو تعذيب
أو تشريد أو جوع . تبدل العبد بلال بعد اضطحابه النبي
إلى إنسان آخر له مثل عليا يعمل جادا للوصول إليها ، له
غرض في الحياة يعيش لأجله ، ويعمل من أجله ، ووطد

العزم على أن يشاطره آلامه وآماله حتى يظهر الله دينه ،
وحتى يأتيهم بنصره الذي وعدهم .

ومرت الأيام ولم يفتقر اضطهاد قريش للمسلمين ، بل
تضاعف لما تيقنوا أن من هاجر منهم إلى الحبشة فرارا
بدينه عاش في كنف النجاشي آمنا مطمئنا ، واشتد
اضطهادهم وتزايد إثر إياب وفدهم من عند النجاشي يجر
أذيال الخيبة والفشل .

اجتمع رؤساء قريش ليتشاوروا فيما يفعلون بمحمد
وصحبه ، وليفكروا في استعمال سلاح آخر غير سلاح
الاضطهاد الذي فل ، سلاح أكثر مضاء ، وأعمق أثرا .
والتفت أبو جهل إلى الحاضرين وقال :

— والله ما بلغنا من ابن عبد المطلب وأصحابه شيئا ،
تفتنهم في أنفسهم وأموالهم ، فلا تزداد دعوتهم إلا انتشارا ،
ولا يزداد أمرهم إلا ظهورا .

إن أتباع محمد ليكثرون بين أظهرنا ، وهذا دينهم
قد خرج من مكة فاستقر في أرض الحبشة ، وجد أصحاب
محمد هناك عزة ومنعة وجوارا .

وراحوا جميعا يديرون قداح الرأي بينهم ، وأخيرا
قر رأيهم على ألا يبيعوا للمسلمين ولا يتاعوا منهم ،
فيقضي ذلك عليهم ، ويقطع دابرهم . وكتبوا بذلك صحيفة
علقوها في جوف الكعبة .

حوصر المسلمون في شعب أبي طالب ، وكان بلال
بينهم ، وتركوا للجوع يستبد بهم ، وبقي بلال ملازما للنبي
يشاطره ما يقاسيه من الشدة والجوع .

ومرت الأيام على المسلمين وثيدة ، ونال الجوع منهم
أى منال . وخوى بطن بلال فخارت قواه ، وزاغت عيناه ،
وتفككت أوصاله ، وراح يتلوى من ألم الجوع ، ولكن
كل هذا لم ينل منه أكثر مما نال منه الاضطهاد والتعذيب ،
فما استطاع الجوع أن يضعف نفسه أو يززع عقيدته
أو يمس إيمانه ، بل على النقيض من ذلك زاد الألم نفسه
صفاء . وهل يصقل النفوس مثل الألم ؟ فما الألم للنفوس
إلا النار للمعادن يصهرها ويخلصها من أدرانها ، ويخلفها
نقية صافية مجلوة .

وارتفع صياح أطفال المسلمين ، ففرح بعض من قدت
قلوبهم من الصخر من قریش لهذا البلاء النازل
بالمحصورين ، ولانت بعض القلوب ورقت ، فما أطفال
المسلمين إلا أطفالهم ، وما هم إلا بعضهم وجزء من فلذات
أكبادهم ، وإن خرج آباؤهم عن دين القوم وعما ألقوه ؛
فعمل أصحاب القلوب الرقيقة جاہدين على نقض هذه
الصحيفة الجائرة ، فنقضت ومزقت ، وخرج المسلمون من
الشعب أكثر عزما ، وأقوى نفسا وأعظم أملا ؛ خرج

المسلمون وقد عقدوا العزم على أن يعملوا على إظهار دينهم
أو يهلكوا دونه .

وأقبلت الوفود لحج البيت المقدس ، فخرج النبي مع
بلال وصهيب وعمار بن ياسر وخباب ، وبعض نفر من
الضعفاء ، يعرض دينه الجديد على الوفود ، ويدعوهم
للدخول فيه ، وحاولت قريش أن تحجز الناس عنه ، وأن
تمنعهم من أن يستمعوا إليه ، وتحذروهم منه ، فكان في
محاولة المنع والتحذير دعاية له أية دعاية ، فما أحسوا أن
كل ممنوع مرغوب ، وما دروا أن النفس تواقعة إلى حب
الاستطلاع ، فأقبل الناس عليه يستمعون إليه ، فذاع أمره
واتشر ، وزاد خطره ، وسمع العرب جميعا بأمر محمد ،
وبدعوة التوحيد التي يرفع محمد بن عبد الله علمها ،
فأقبلت الوفود يتساءلون عن النبأ العظيم .

وخرج الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة الفزاري ،
وهما ممن أسلم من أشراف مضر ، وما كانا يفقهان ما في
الدين الجديد من تشريع حكيم ، وما كانا في حاجة إلى أن
يفقها ما فيه ، فما اعتنقاه إلا ليقال إنهما خرجا عما ألفه
القوم ، وثارا على ما يعتنقون ، وفي ذلك ذبوع لصيتهما ،
واتشار لأمرهما ، وكان هذا كل ما يبغيان من دنياهما
وأخراهما .

خرجنا يمينان النفس بالجلوس مع النبي ، فإذا ما أقبلت عليه الوفود ورآهما الناس ، عرفوا فضلهما ، وفي هذا إشباع لرغبة الظهور فيهما . ولكن لما اقتربا من مجلسه وجدا بلالا وصهيبا وعمارا وخبابا وبعض ناس من الضعفاء جالسين معه ، فأحسا انقباضا وضيقا وتبرما ، فما كانا يمينان هذا ، وما كانا يرضيان عن أن يشاركهما أمثال هؤلاء الأعباء مجلس النبي ، فما لهذا جاء ، وما لهذا أسلما . والتفت الأقرع إلى عيينة وقال :

— والله لا أدري ما يجب الرسول في هؤلاء الأعباء ؟

— إنهم أصفياؤه .

— أما وجد خيرا منهم ؟

— إنهم لا يفارقونه أبدا : فبالل يسير معه أينما سار ،

بويتبعه حيثما ذهب .

— أنشاركهم مجلسهم ؟

— لا .

— علام عولت إذن ؟

— سأطلب منه أن يقيمهم عنه إذا نحن جئنا .

— أيقبل ؟

— ولم لا يقبل ؟

وانطلقا حتى إذا ما جاء النبي مال الأقرع عليه وقال :

— نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب

فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع
هذه الأعداء ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن
فرغنا فأقمهم معهم إن شئت .

فأطرق النبي قليلا ثم رفع رأسه وقال :

— نعم .

وأمر النبي بلالا وصحبه بالانصراف ، فانطلقوا ،
وانطلق بلال وقد طافت به سحابة من الحزن ، وغمغم :
« أيطردنا النبي من أجل هؤلاء السادة ؟ » . وطأطأ بصره ،
وهم بأن يسترسل في ألمه ، ولكن صاحته به نفسه : « صه
يا بلال ، كيف يخطر على قلبك هذا ؟ ما طردكم النبي
وما تخلى عنكم ، إنه ما فعل ذلك إلا ليرضى غرور هؤلاء
السادة مرة ، وقد أرضاكم مرارا ، وشملكم بعطفه وبره
وكرمه » .

وانطلق بلال ، وجلس الأقرع وعيينة مع النبي ، وأحسا
زهو وفخرا ، وشاء أن يستوثقا من دوام هذا التفضيل
فقالا :

— اكتب لنا كتابا .

فدعا رسول الله عليا ليكتب لهما كتابا ، ودعا بصحيفة
ولما تناولها تغيرت هيئته ، وتقصد العرق من جبينه وبان
عليه الجهد ، فعلم على أنه يوحى إليه فصمت ولاذ الجميع
بالسكوت ، حتى إذا ما عاد النبي إلى حاله الأولى رمى

الصحيفة من يده ورفض أن يكتب ما يطلبان ، وطلب دعوة بلال وأصحابه على الفور ، وانتظر أوبتهم بصبر نافذ ، ولما أقبلوا بش لهم الرسول وقال :

— سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة .
وجلسوا إليه ، والتفت إليهم الرسول ورتل ما أنزل عليه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » .
فشاع السرور في نفس بلال ، وفاضت روحه رضا واطمئنانا ، ودنا من النبي والبشر ظاهر عليه ، حتى أصبحت ركبته فوق ركة النبي الحبيب .

جلس النبي مع بلال وأصحابه ما شاء الله أن يجلس ، ثم تركهم وقام ، وكان النبي سحابة يومه معهم ، وإذا ما أراد أن يقوم تركهم . فأنزل الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . فأصبح رسول الله يصبر أبدا حتى يقوموا ، وكان بلال وأصحابه يعلمون ذلك ، فإذا ما بلغت الساعة التي يريد أن يقوم النبي فيها تركوه وانصرفوا ، فيقوم الرسول لقضاء حاجته .

الهجرة

شاع في مكة خبر وفود نفر من الأوس والخزرج واجتماعهم بالنبي ، وإسلامهم ومبايعتهم له ؛ فاضطرب جبل قريش لذيوع الإسلام في يثرب ، وزاد حنقهم ، واعتلجت بالحفيظة صدورهم ، فضاعفوا الأذى للمسلمين ، ووقعت على بلال ضروب المحن ، وصب عليه ألوان العذاب وهو صابر على الأذى . ورأى النبي ما نال أصحابه من الاضطهاد والتضييق فقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ، ودارا تأمنون بها فهاجروا .

فأطرق بلال يفكر فيما قال الرسول : أيهاجر ويترك مكة التي تنفس أول ما تنفس هواءها ، ودرج أول ما درج على أرضها ، ورتع أول ما رتع في فضاءها ، ونبض قلبه أول ما نبض بالحب لها ؟ إنه يحبها ، تربطه بها ذكريات ، وإن لم تكن جميلة كلها ، طيبة كلها ، فهي ذكريات عزيزة عليه ، تجعلها قطعة من روحه ، وتجعله جزءا منها ، على الرغم مما ناله من عذاب على أرضها وما وقع عليه من اضطهاد بها . وغمغم : « إيه يـ مكة . يا أحب أرض الله

إلينا ، أكتب علينا أن نهجرك ، ونخرج منك مطرودين
مشردين ؟ » .

ونهض وسار مطأطئ البصر ، شارد اللب ، يفكر في
أمر الرسول بالهجرة . واسترسل في تفكيره ، ولم يقطع
حبل استرساله إلا أصوات بعض الهازئين بالصايب ،
فرفع رأسه فألقى أمية وأبا جهل وأتباعهما يسخرون منه ،
فانطلق ماذا بصره أمامه ، ثم أجاله فيما حوله وتمتم : « لم
يبق لنا بقاء فيك يا مكة ، فقد أصبحت دار هوان . تنكر لنا
فيك يا مكة كل شيء ، تنكر الأهل والخلان . ضقت بنا يا مكة
ولم نضق بك ، فما المقام يا مكة ، ألبلاء والعذاب ؟
ما تجنيت يا مكة ولا تجنينا ، بل أهلك الذين تجنوا وأغلقوا
أعينهم عن النور ، فما من الوداع بد ، فالوداع الوداع حتى
يقضى الله أمرا كان مفعولا » . وراح يضرب في أحياؤها
وأسواقها يتزود منها بالنظرة الأخيرة ، ودخل البيت يطوف به
فأجس بحزن ثقیل ، وراح يطوف وفي القواد ضريم نار ،
تري أهذا طوافه الأخير بالبيت ؟ أهذا آخر عهده به ؟ أم كتب
عليه أن يراه مرة أخرى ؟ وخرج مخلفا البيت وراءه ،
فأحس غصة في حلقه ، وكادت تفر ذمعة من عينيه ، ولكنه
تجلد وانطلق موطد العزم على الرحيل . وتقابل وعمار
ابن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص . فقال لهما :

— لم يبق لنا مقام في مكة ، وسأهاجر الليلة .
فقال عمار : ألا تنتظر قليلا ؟
فقال بلال : « ولم الانتظار ، وقد أمرنا رسول الله
بالحجرة » ؟
فقال سعد : « خير البر عاجله ، سأخرج معك الليلة
يا بلال » .

فقال عمار : « إن خرجتما الليلة صحبتكما » .
واتفقوا هم الثلاثة على الخروج ليلا والناس نيام ،
تاركين بلدهم الظالم أهله ، ميممين شطر يثرب ، آملين أن
يسدل الله خوفهم أمنا ، وأن يجعل الله لهم فيها مقاما
محمودا .

وسجا الليل ، وهجع الكون ، وخرج بلال في الموعد
المضروب قاصدا المكان الموعود ، وسار على حذر يتلفت
خلفه ، وسحب راحلته وهو يرجو ألا تحدث صوتا ينبه
النوام إليه ، وانطلق يساوره القلق من أن يعثر به أحد
فيفضح أمره ، وينكشف سره ، فيتألب عليه القوم
يمنعونه من الخروج . ولكن الليل كان حالك الظلام ،
كأنما ارتدى ثوب الحزن لفراقهم ، وما كان لإنسان أن
يبين مواقع قدميه ، فاطمأن بلال إلى ذلك ، وردت نفسه
إلى هدوئها ، وبلغ المكان المقصود فألقى رفيقه ينتظراه .
واكمل عقدهم ، وامتطوا رواحهم ، وانطلقوا صامتين ،

فقد عقد الحزن ألسنتهم ، والتمعت الذكريات برءوسهم ،
ذكريات مكة الحبيبة ، ذكريات الطفولة والشباب ، ذكريات
الأهل والخلان . لقد خلفوا وراءهم كل شيء يربطهم
بماضيهم ، وانطلقوا إلى مستقبل مجهول . لا يدورن
ما يخبئه لهم من أحداث . وأحس بلال بلوعة لفراق مكة ،
ووقع في نفسه حزن ثقيل ، وانحدرت من عينيه دموع
كفكفها بظهر يده . انطلقوا وما كان يدور بخلداهم أنهم عما
قريب سيعودون إلى مكة مرفوعي الرأس ، موفوري
الكرامة ، وأن صوت بلال الصداح سينساب في أجوائها
عذبا معلنا انتهاء الوثنية ، وأن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له .

انطلقوا ترفعهم التجاد ، وتحطهم الوهاد ، ويرعاهم الله
حتى بلغوا يثرب ، فألقوا ناسا كراما ، يكون لهم الحب
ويفضلونهم على أنفسهم وإن كانت بهم خصاصة ،
فاطمأت نفس بلال ، وأحس راحة وهدوءا . فقد تصرم
أوان التعذيب والاضطهاد ، وانقضت أيام الشدة والضيق ،
ولاح في الأفق بصيص من النور ، سينتشر وينتشر حتى
يغمر العالمين ، ويتألق حتى يخطف سنا ضوءه الأبصار .
ومرت الأيام بطيئة ، وأحس بلال فراغا في نفسه ،
وشوقا إلى النبي . إنه يحن إلى لقائه ، يتحرق شوقا

لسماع صوته الهادىء الحلو ، فما يطيق التأى عنه أكثر من ذلك ، فكيف بالبعد ، وما تركه قط من يوم إسلامه إلى يوم هجرته ؟ متى يقبل النبى حتى ترد نفس بلال إلى طبعها ؟!

وأقبل عمر بن الخطاب ، فأسرع بلال إليه يستفسر منه عن النبى ، وكيف خلفه ؟ ومتى يوافيهم ؟ فأخبره عمر أنه سيكون بين ظهرائهم عما قريب ، فانصرف بلال وهو يمنى النفس بقرب لقاء الحبيب .

وانتشر فى يثرب خبر خروج النبى من مكة ، فوقع هذا الخبر فى نفس بلال موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، وشاع السرور فى نفسه ، وخرج مع القوم إلى ظاهر المدينة ينتظر طلعة النبى بصبر نافذ ، وراح يمد بصره يكشف عن الطريق لعله يلمح النبى فيرد إلى نفسه الصادئة لرؤياه طمأنينتها . ولكن النهار قد تصرم وما ظهر فى الأفق أثر لقادم ، فأب إلى داره ، ينتظر انقضاء الليل ليخرج لانتظار الرسول .

ومرت الأيام ولم يقدم ، فخالج القلق بلالا ، وراح يتساءل عن سبب تأخر مقدمه ، فلا يجد جوابا مطمئنا لتساؤله . وفى يوم اشتد حره انتظر مع المنتظرين ، ثم قفل الناس راجعين بعد أن صوبت إليهم الشمس سهامها الحامية وبقي بلال وحده . ولما سفعته الشمس ، وتحرقت منه

الأقدام ، عاد على الرغم منه إلى الدار حيث اضطجع ،
وفيما هو في استلقائه إذ قرع أذنه صوت ينادى : « جاء
نبي الله .. جاء نبي الله » . فانتصب واقفا ، وغمغم : « أحقا
النداء ؟ أم صوت الوهم صك أذني ؟ » . وارتفع الصوت
ثانية : « جاء نبي الله .. جاء نبي الله » . فخرج بلال يعدو ،
وراحت الإحساسات المتباينة تتزاحم في صدره ، فقد
امتلا بالفرح ، وامتزج الفرح بالقلق ، ولمح راحلتين والناس
حولهما ، فتفرس في راكبيهما ، فعرف النبي وأبا بكر ،
فهتف : « هو والله رسول الله ، هو والله رسول الله » .
وأسرع في عدوه ، يكاد يطير من شدة الفرح ، فقد أقبل
رسول الله أخيرا ، فتم لبلال كل شيء : أمن ودعه ،
واطمئنان في العبادة ، وقوم ألان الله قلوبهم ، وقرب من
النبي الحبيب .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته ، وجاء
المسلمون يسلمون عليه ، فأسرع بلال إليه ليطلق نيران
الشوق المندلعة في صدره .

الحنين

قدم النبي وأصحابه إلى المدينة ، وكان الوباء منتشرا بها ، فأخذت الحمى أبا بكر الصديق وكثيرا من المسلمين . ولما قضيت صلاة العشاء ، دخل بلال يزور أبا بكر ، وجلس عنده يجاذبه أطراف الحديث محاولا أن ينسيه بعض ما يقاسيه من ألم الحمى . وانقضى من الليل ثلثه وغفا أبو بكر ، فتسلل بلال إلى فناء الدار وركد ، فمس النوم عينيه بأنامله الرقيقة فنام مطمئنا .

وانفلق عمود الصبح ، ونشرت الشمس ضياءها على الكون ، وغمرت بلالا وهو راقد مكانه لا يحس شيئا ، فتململ في رقدته ، وفتح عينيه ، فرأى النهار الساطع ، فهب من نومه مذعورا ؛ لقد طلع النهار وما صلى الفجر ، وانتصب واقفا . فأحس ثقلا في رأسه ، وتفككا في أوصاله ، وخورا في قوته ، وضعفا في بدنه . ومد بصره أمامه فألقى دنيا تتراقص ، وعجزت ساقاه عن حمله فانهار وسقط على الأرض ، فرفع يده على رأسه ومررها على وجهه ، فأحس حرارة شديدة تنبعث منه ، فتيقن أن الحمى أخذته ؛ وحاول أن ينادى أحدا من الدار ، ولكنه أحس غشاوة على عينيه ،

وثقلا في رأسه ، فانكفاً على وجهه ، ووضع ذراعه على الأرض ، وألقى برأسه فوقها وغاب عن الوجود .
وتصرمت الأيام وبلال وأبو بكر مريضان ، وأقبلت عائشة تعودهما كعادتها ، فألفت بلالا مضطجعا ، فاتجهت نحوه سألته :
وقالت له :

— كيف تجدك يا بلال ؟
ففتح بلال عينيه ثم أسبلهما ، فما استطاع أن يفتحهما طويلا ، ولم ينبس ، فتركته واتجهت إلى الدار ولما رأت أباها قالت :

— يا أبت كيف تجدك ؟
فأنشد أبو بكر :
كل امرئ مصبَّح في أهله .
والموت أدنى من شرك نعله
وراح أبو بكر يذكر مكة وأيامه فيها ، ويحن إليها ، فأنظرت عائشة وغمغت ، « إنها الحمى ولا ريب » .
وأقلعت الحمى عن بلال فترة ، فراحت نفسه تعمل ، وانتقل به خياله من يشرب إلى مكة ، من دار أبي بكر إلى دور بني جمح ، من مهجره إلى الوطن الحبيب ، فألقى روحه تسبح في أجواء مكة ، تطوف بأسواقها ، وتزور بيتها المقدس ، وتضرب في دروبها فأحس شوقا إلى أرض

الوطن ، وهواء الوطن . وتطلع إلى السماء فغمغم :
« لا ريب أن سماء مكة أجمل من هذه السماء » وملاً رثيته
بالهواء وتمتم وهو يزفر : « إن هواء مكة أنقى من هذا
الهواء » . وراحت الصور الحبيبة إلى نفسه تتمثل أمام
عينيه ، فرأى نفسه طفلاً يلعب بمكة ، وتذكر رفقاء الطفولة
فيها ، ثم رأى نفسه شاباً يتأهب للخروج للتجارة ، ثم رأى
نفسه مقبلاً من رحلته إلى مكة ؛ يجيش صدره بالشوق
إليها ، وإلى أهلها . وتمثلت له صورته وهو شاب بين
شباب بنى جمح ، يطربهم ويدخل السرور على نفوسهم ،
فأحس حنيناً إلى الأوطان . وتذكر إسلامه وتعذيبه ،
فما خفت هذه الصورة القائمة من لوعة الفراق ، بل زكت
نار الشوق في نفسه . إنه يشعر بالحنين إلى مكة يملأ
جنباته ويستولى على مشاعره ، إن هذا الحنين لجيش في
نفسه ، وليزداد ، وليفيض ويفيض حتى لا يستطيع له كبتاً
أو كتماناً ، فيرفع عقيرته :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة

بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة

وهل يدون لى شامة وطفيل

وبلغ صوت بلال سمع عائشة ، فأطرقت وطاق بها

خاطر ، أهذا من أثر الحمى أيضاً أم هو حنين إلى الأوطان ؟

وغمغت : « ما بال قوم يحنون إلى مكة هكذا سريعا ؟! »
ونهضت وانصرفت ، ولما قابلت النبي قصت عليه ما رأت
وما سمعت ، فقال صلى الله عليه وسلم :
— اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة .

الله أكبر . . الله أكبر . .

في الهزيع الأخير من الليل ، نهض بلال وتوضأ وراح
يتحين الفجر ، ولما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ،
دلف إلى المسجد ، فوجد النبي وكثيرا من المسلمين ينتظرون
الصلاة ، ثم حان ميقاتها فصلوا . ولما قضيت جلس النبي
والمسلمون حوله ، ثم أقبل بعض نفر بعد انقضائها ، فقال
أجدهم للنبي :

— فاتنا الفجر يا رسول الله ، أما من وسيلة لجمعنا ؟ .

فأطرق الرسول يفكر ، وقال آخر :

— إتنا في ميسس الحاجة إلى ما يدعونا إلى الصلاة ،

فكثيرا ما تضطر إلى الانقطاع عن أعمالنا والبقاء في المسجد
حتى لا تفوتنا .

فقال أحد الحاضرين :

- تنصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا ما رآها
الناس أعلم بعضهم بعضا .
فلم يعجب هذا الرأى النبى .
وقال آخر :
- لو رفعنا نارا ، رآها الناس جميعا وقاموا للصلاة .
فقال رسول الله :
— ذلك للمجوس .
وقال ثالث :
- شبور (بوق اليهود) .
فقال رسول الله :
— هو من أمر اليهود .
فقال رابع :
— تتخذ الناقوس .
— هو من أمر النصارى .
- ودار النقاش بين المسلمين ، وأخيرا وافق رسول الله
على الناقوس وهو كاره ، فقام الناس لنحته ليضرب به
للمسلمين للصلاة .
- وفى يوم من الأيام ، بينما كان رسول الله فى المسجد ،
إذ أقبل عبد الله بن زيد متهلل الوجه ، منشرح الصدر ،
واتجه إلى النبى وقال :
- طاف بى يا رسول الله الليلة طائف ؛ فبينما كنت بين

النائم واليقظان ، مر بى رجل عليه ثياب خضر ، يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له : « يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ » . قال : « وما تصنع به ؟ » قلت : « ندعو به إلى الصلاة » . قال : « ألا أدلك على خير من ذلك ؟ » . قلت : « وما هو ؟ » قال : « تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

استمع رسول الله إلى رؤيا عبد الله ، فبان البشر فى وجهه ، وشاع الاطمئنان فى نفسه ، فلقد اهتدى المسلمون أخيرا إلى ما يدعوهم إلى الصلاة ، دون محاكاة أو تقليد ، ودون أن يخشوا أن يختلط عليهم الأمر إن دق الناقوس . لقد أصبح الأذان لهم وحدهم وبات الناقوس للنصارى لن يشاركهم المسلمون فيه . والتفت النبى إلى عبد الله وقال : — « إنها رؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك » .

ارتفع صوت بلال عذبا يدعو الناس للصلاة ، وانساب فى أجواء يثرب حلوا نديا ، وانسكب فى آذان القوم فهز أفئدتهم ، وخرجوا من دورهم مأخوذين ، ويمموا صوب

المسجد ليروا ما هذا الحدث الجديد ، ومن ذلك البلب
الصداح ؟

وبلغ أذان بلال سمع عمر بن الخطاب ، وكان راقدا
في داره ، فاعتدل وأرهف السمع وتساءل : « ما أسمع ؟
أفي يقظة أنا أم في منام ؟ إن ما أسمعه الآن هو عين ما سمعته
في رؤياي » وهب عمر من نومه ، وخرج من داره مسرعا ،
واتجه إلى الرسول وهو يجرداءه .

وما إن لمح النبي حتى هتف : « يا نبي الله ، والذي
يعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى » .

فقال رسول الله :

— فله الحمد .

نهاية أمية وأبى جهل

استتب الإسلام في يثرب وقويت شوكته ، وطابت الحياة للمهاجرين الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من بلاء واضطهاد ، ولكنهم لم ينسوا مكة ، وكانوا يحسون حنيناً إليها ، وشوقاً إلى آبائهم وأبنائهم وأقاربهم الذين خلفوهم فيها ، ولكم تمنوا أن يمكنهم الله من قريش ليقتصوا لأنفسهم . وما إن علم النبي أن أبا سفيان ابن حرب ، قد أقبل من الشام في غير لقريش فيها أموالهم وتجارتهم ، حتى قال لأصحابه : « هذه غير لقريش ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » .

خرج المسلمون وبلال معهم ، وراحوا يعتقبون غيرهم ، ومر الزمن وطويت الأرض ، ونزلوا بالقرب من ماء بدر ، وكان أبو سفيان قد بلغه أن النبي استنفر أصحابه له ، فأرسل إلى مكة يستنفرهم إلى أموالهم . وبلغ النبي سير قريش لينقذوا أموالهم ، فاستشار الناس ، فتكلم أبو بكر وعمر ، ثم قام المقداد بن عمرو وقال : « يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا

قاعدون ؛ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ،
فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا
معك من دونه حتى تبلغه » . فأشرق وجه النبي صلى الله
عليه وسلم وسره هذا القول .

وعسعس الليل ، ونشر رداءه الأسود على المكان ،
فبعث رسول الله على بن أبي طالب ، والزيير بن العوام
وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فوجدوا
ساقين فقبضوا عليهما ، وعادوا بهما حتى بلغوا النبي ،
فوجدوه يصلي ، فسألوهما :
— سقاة من أتما ؟

فقالا : « نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء » .
— كذبتما .

— لم نكذبكم القول .

— بل أتما ساقيان لأبي سفيان .

— نحن سقاة قريش .

فضربوهما وأوجعوهما ، فصاحا :

— نحن سقاة أبي سفيان ، نحن سقاة أبي سفيان .

فتركوهما ، وأيقنوا أن غير قريش وتجارتهن أصبحت

في قبضة أيديهم ، وأتم رسول الله الصلاة وقال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما : وإذا كذباكم تركتموهما ،

صدقا والله ، إنهما لقريش .

وأقبل رسول الله على الناس وقال :

— هذه مكة قد ألت إليكم أفلاذ أكبادها .

تمكن أبو سفيان من الانقلاط بالعرير ، ولحق قريشا
بالقرب من بدر فأنبأهم بنجاة تجارتهم ، وطلب منهم العودة
فلا موجب للقتال وإهراق الدماء ، ولكن أبا جهل عزم على
أن يرد بدرا ، وعلى أن ينزل فيها ثلاثة أيام ، وقال :

— لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

وارتفع الجدل بين القرشيين ، ونزلوا أخيرا على رأى
أبى جهل ؛ وأتى المسلمون أدنى ماء القوم ، وبنوا حوضا
على الماء وملأوه ليشربوا ولا يشرب الكافرون ، وبنوا
عريشا للنبي واصطف المسلمون ينتظرون الإذن بالقتال ؛
وارتفع صوت النبي : « اللهم هذه قريش قد أقبلت
بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك
الذى وعدتني » .

وأقبل الكفار حتى أصبحوا أمام المسلمين وجها لوجه ،
فراح النبي يسوى الصفوف ، ووقف عبد الرحمن بن عوف
بين ابني عفراء ، وهما فنيان حديثا السن ، فراح يرمقهما
بعين الاستخفاف ، ولم يأمن لمكاتبتهما ، وقال في نفسه :
« أما كان الأفضل أن أقف بين رجلين شديدين ؟ » وما كاد
ينتهى من خواطره حتى مال أحد الفتيين عليه ، وقال له سرا
من صاحبه :

— يا عمى أرني أبا جهل .
— يا بن أخي ما تصنع به ؟
— عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .
فنظر عبد الرحمن إليه نظرة إكبار ، وأشار له إلى أبي
جهل وقال :

— هو ذا يا بني ينتقل بين صفوف القوم .
— ومال الفتى الثانى على عبد الرحمن وهمس :
— أرني أبا جهل .
— وما تصنع به ؟
— أقسمت أن أقتله أو أموت دونه .
فقرت نفس عبد الرحمن لوقوفه بينهما .
وخرج الأسود من صفوف قريش : وقصد الحوض
ليشرب منه أو يموتن دونه . وخرج حمزة إلى الأسود
وعاجله بضربة قطعت ساقه ، فلم يثن ذلك الأسود عن عزمه ،
وراح يزحف مقطوع الساق نحو الحوض ، فضربه حمزة
ضربة قاضية فتدفق الدم على الأرض ، وثارت النفوس
لرؤية سفك الدماء ، وخرج عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ،
وابنه الوليد من صفوف المشركين يطلبون النزال ، فندب
النبي لهم عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث ، ودارت المبارزة
فهجم على علي الوليد هجوم الليث فقتله ، ومال حمزة على
شيبة وشده عليه وطعنه طعنة تركته كأمس الذاهب .

واستمرت المبارزة بين عبيدة وعتبة ، فانضم حمزة وعلى لصاحبهما وشدوا على عتبة فقتلوه .

وهمت قريش بالزحف ، فأمر النبي المسلمين أن يمنعوهم بالنبل من الاقتراب منهم ، ودخل النبي وأبو بكر العريش ، ثم خرج النبي يحرض القوم ، قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ثم أمر « شدوا » فهتف المسلمون :

— أحد .. أحد .

وهتف بلال معهم « أحد .. أحد » فتذكر يوم عذب في رمضاء مكة ، وما نزل به من بلاء لترك دين محمد ويرتد إلى دين قريش ، وكيف كان يردد « أحد .. أحد » فيزداد القوم طغيانا . تذكر ذلك فثار الدم في عروقه وهجم على الأعداء كليث عاد ، ومشى المسلمون إلى الكافرين مشى الوعول ، وتصافحت السيوف ففغرت المنايا أفواهاها ، وشد ابنا غفراء على أبي جهل كصقرين كاسرين ، فعاجله أحدهما برمحه : وضربه الآخر ضربة قاتلة جعلته يسقط مضرجا في دمه ، يجود بأنفاسه الأخيرة .

وراح أبطال المسلمين يعملون سيوفهم في المشركين . صناديد قريش صرعى ، وحاول الباقون النجاة من سيوف المسلمين فولوا الأدبار ، فكانت الهزيمة ، وتعقبهم المسلمون

ووقع في الأسر ناس كثيرون ، وراح المسلمون يجمعون
الغنائم .

ولم يستطع أمية بن خلف وابنه الفرار ، فوقفا ينتظران
الأسر ، ومر عبد الرحمن بن عوف عليهما ، فلما لمح أمية
صاح :

— يا عبد عمرو .

فلم يجبه عبد الرحمن ، فتذكر أمية ما اتفقا عليه في مكة
من دعوته بعبد الإله ، فهتف :

— يا عبد الإله .

— نعم .

— هل لك في ، فأنا خير لك من هذه الأدرع التي
معك .

— نعم ، هلم إذا .

فطرح الأدرع من يده ، وأخذ بيده ويد ابنه على ،
وراح يمشي بهما ، وفيما هم سائرون قال أمية :

— من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ؟

— ذلك حمزة بن عبد المطلب .

— ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل .

واستأنفوا سيرهم ، ولحقهم بلال ، فما إن رأى أمية ،
سيده بالأمس ، الذي نكل به نكالا شديدا ، وعذبه عذابا
رهيبا ، حتى ثارت نفسه ، وتحركت رغبة الانتقام فيه ،

فأسرع نحوهم وقد شهر سيفه ، ولما أصبح أمام أمية صاح :

— رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا .

وهم بقتله ، فقال عبد الرحمن :

— أي بلال داع أسيرى

— لا نجوت إن نجوا .

— أسمع يا بن السوداء ؟

— لا نجوت إن نجوا .

وحاول بلال قتلها ، ولكن عبد الرحمن راح يذب

عنهما .. أتركهما بلال بعد أن وقعا في يد ، أتركهما بعد

أن ساقهما الله إليه ؟ لا ، ليقض عليهما وإن كان في ذلك

إغضب عبد الرحمن ، فصاح بأعلى صوته :

— يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت

إن نجا .

فأسرع الأنصار إليهم ، وأحاطوهم ، ثم جعلوهم مثل

المسكة . وراح بلال يصيح وعبد الرحمن يذب عن أسيريه ،

فشهر الأنصار سيوفهم ، وضرب رجل منهم على بن أمية ،

فسقط يخط في دمه ، فصاح أمية صيحة المفجوع :

— ولدى .. ولدى .

والتفت إليه عبد الرحمن وقال :

— انج بنفسك، ولا نجاة فو الله ما أغنى عنك شيئا .

فأسرع أمية يطلب النجاة ، واقتفى بلال أثره ، ولما لحق

به طعنه فسقط على الأرض ، وأقبل الأنصار وهبروه
بأسيافهم ، فالتفت إليه بلال وقال :
— ما أضعفك الآن يا أمة .

والتفت عبد الرحمن بن عوف إلى بلال وقال :
— فجعتني في أسيري يا بلال .
فنظر بلال إليه نظرة كلها عتاب ، فطأ عبد الرحمن
رأسه ، فقال له بلال .
— عوضك الله يا عبد الرحمن خيرا .

خازن الرسول

تبدد الغبار ، وانجلت معركة بدر عن فرار أهل مكة ، فانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها . وكانت هذه الغنائم أول ما وقع في أيديهم فراحوا يتسائلون لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : « نحن جمعناها فهي لنا » . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق بها فلولاً لنا لما أصبتموها » . وقال الذين كانوا يحرسون النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من ينعه ، ولكننا خفنا على رسول الله كرة العدو فقمنا دونه » . فأمر النبي برد كل ما في أيديهم من الغنائم ، وأمر أن تحمل إلى أن يرى فيها رأياً ، أو يقضى الله فيها بقضائه .

ونزلت الآية : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل » . فأخرج الخمس للنبي وحمله بلال ، ووزع الباقي على المحاربين . فأصبح بلال خازن الرسول ، وكان النبي يرسل له المسلم العائل فيطعمه ويكسوه . وفي يوم دخل

النبي صلى الله عليه وسلم على بلال وعنده صرة من تمر ،
قال :

— ما هذا يا بلال ؟

— يا رسول الله ، ادخرته لك ولضيفانك .

— أما تخشى أن يكون له بخار في النار ؟ أنفق بلال
ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

وقف اليهودى يرقب أسراب الطير العائدة إلى أوكارها
قبل هجوم الليل ، وأخذ يستمع إلى زقزقة العصافير التي
هتكت غلالة السكون ، ومد بصره فرأى قرص الشمس
المتوهج يغوص في الأفق البعيد ، ويختفى شيئا فشيئا حتى
غاب عن عينيه ، وأخذت زقزقة العصافير تخف وتخف حتى
تلاشت ، فسيطر السكون على المكان ثانية ، وأحس اليهودى
نشوة تشيع في نفسه . وارتفع صوت بلال نديا يدعو إلى
صلاة المغرب فمس أذنى اليهودى مساً رقيقاً ، ونفذ إلى قلبه
وعبث بأوتاره ، ف شعر اليهودى بموجة من الخشوع المتزجة
بالرهبة تجتاحه وحاول أن يصم أذنيه عن سماع هذا النداء
ولكن لم يقدر على مقاومة رغبته في الاستمتاع بعذوبة
صوت ذلك البلبل الصداح ، فأطرق برغمه يستمع إلى
الأذان . وما إن انتهى بلال من أذانه حتى أنكر اليهودى

على نفسه استسلامها وغمغم : « ما كان ينبغي لى أن أعيره
سمنى ، فإن فى صوته لسحرا ، وفى دعوته لفتنة » :
فهتفت به نفسه : « لكم رددت هذا القول عقب أذانه ، ثم
إذا ما عاد إلى الأذان أطرقت وأعرته السمع . أما من وسيلة
نستحوذ بها على هذا الحبشى فتحرم المسلمين منه ، وتأمين
على إخوانك من أن يفتنهم فى دينهم ؟ » . وأطرق يفكر فيما
يمكنه من استرقاق بلال ، وإعادته عبدا كما كان قبل الإسلام
حتى يستريح منه ، ويمنع هذا الصوت الفتان من أن يجلبل
خمس مرات فى اليوم يدعو إلى محمد وإله محمد . وخطرت
له فكرة اطمأن إليها ، فبرقت أسارى وجهه ، وعزم على
إنفاذها .

راح اليهودى يرقب بلالا ، وفى يوم من الأيام لمح
مقبلا وبرفته رجل من المسلمين رقيق الحال ، فتيقن أن
بلالا ما قدم إلا ليشتري البردة والشيء ، فيكسوه المسلم
الفقير ويطعمه كما أمره النبى فاعترض اليهودى بلالا
وقال له :

— يا بلال إن عندى سعة ، فلا تستقرض من أحد
إلا منى .

فأطرق بلال ، وراح اليهودى ينصب فخاخه ، قال :
— سأقرضك كل ما تحتاج إليه .
— أجل .

— إني يا بلال أثق بك ثقة لا حد لها ، وإلا لما عرضت عليك هذا ، ولكن تعلم أننا معشر اليهود حريصون على المال ، فلا نقرضه لأحد ما لم يكن تحت يدنا ما يضمن السداد ، أعندك ما ترهنه عندي ؟

— لو كان عندي شيء ما استقرضت .

— لن أضع يا بلال شروطا تعجز عن تنفيذها ، فإني أثق بك . فما علينا لو اتفقنا على أن آخذك مقابل الدين إن امتنعت عن السداد ؟

فأطرق بلال وقال اليهودي :

— إني على يقين من أنك لن تمتنع عن السداد ، وما هذا إلا مجرد شرط لإرضاء ناحية الحرص فينا . فصمت بلال ثم قال :

— اتفقنا !

— ومتى السداد ؟

— في نهاية الشهر .

— إن عجزت عن السداد سأخذك مقابل الدين .

وضحك اليهودي ، وقدم المال إلى بلال أمام عصاية من التجار . وانصرف بلال ، وشساع الرضى في نفس اليهودي فقد كان يعلم أن محمدا لا يملك ما يوفي الدين ، وأن بلالا لن يستطيع الدفع قبل تصرم الشهر . لقد وقع المؤذن الحبشى فيما نصب له من فخاخ .

وتصرمت الأيام ، واختفى القمر من السماء إيذانا بقرب
انقضاء الشهر ، والتأهب لاستقبال مولد شهر جديد ،
وقام بلال ليؤذن بالصلاة ، فإذا اليهودى مقبل فى عصابة
من التجار ، وما إن لمح بلالا حتى قال :

— يا حبشى .

— يا لبئىة .

— أتدرى كم بينك وبين الشهر ؟

— قريب .

— إنما بينك وبينه أربع ليال .

” فأطرق بلال وقال لليهودى :

— أتستطيع السداد الآن ؟

— لا .

— إن لم تسدد قبل نهاية الشهر فساخذك بالذى لى
عليك ، فإنى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من
كرامة صاحبك . وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا ، فأذرك
ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .

فأطرق بلال ولم يحر جوابا ، ووقع فى نفسه حزن ثقيل ،
وانصرف اليهودى وعصابة التجار ، وبقي بلال وحده
ساهما ، شارد الفكر .. واسترسل فى أحزانه ، أكتب عليه
أن يعود عبدا كما كان ؟ ، أتركه المسلمون لذلك اليهودى
بفعل به ما يشاء ؟ ، ولكن لم كل هذا الحزن وهو لم يقابل

النبي ولم يعرض عليه الأمر ؟ ، إنه يعلم أن النبي ليس عنده ما يقضى عنه ، فهو أعلم الناس بما عنده ، فهو خازنه ، وهو المتصرف في أمواله ؛ وتذكر بلال أنه لم يؤذن بعد ، فقام وأذن ، ولما قضيت الصلاة رجع رسول الله إلى أهله ، فاستأذن بلال عليه ، فأذن له ، فدخل ، ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال :

— يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؛ إن اليهودي الذي ذكرت لك أني كنت أستدين منه يطلب السداد أو أخذي بالذي على ؛ وليس عندك ما تقضى عني ولا عندي ؛ وهو فاضحي ، فأذن لي أن آتي بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا ، حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عني .

فأطرق الرسول ولم يأذن له ، فخرج بلال حزينا يفكر في أمره ، وانطلق حتى أتى منزله ووقع فريسة لأفكاره ، وراح سيال الفكر ينتقل به من يثرب إلى مكة ، فرأى أيام استرقاقه وتعذيبه ، فازداد حزنه وغمغم : « أبعد أن أتسم الحرية أعود لذل الرق ؟ » واتجه إلى فراشه آملا أن يطوقه ملاك النوم بذراعيه فيريحه من آلامه وأحزانه ، فنام مستقبلا بوجهه الأفق ، وجعل سيفه وقرابه ورمحه ونعله عند رأسه ، وغفا قليلا ، ثم هب مذعورا فرأى عليه ليلا فنام ، وما إن استأنف نومه حتى انتبه . وظل على هذا الحال طوال الليل حتى انفلق عمود الصبح الأول ، فأراد أن ينطلق ، فإذا

بصوت يشق السكون المخيم على المكان ، يا بلال ، يا بلال ..
أجب رسول الله . فانطلق بلال ، وراحت نفسه تعمل
طوال الطريق ، وأخذ يتساءل « ترى أجا الفرج من
عند الله ؟ » وبلغ دار النبي فاستأذن ووقف ينتظر الإذن له ،
وكان الأمل والخوف يتنازعانه ، ثم أذن له فدخل ، فابتدروا
النبي :

— أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك .

— الحمد لله .

— ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟

— بلى .

— فإن لك رقابهن وما عليهن فاقبضهن إليك ثم اقض
دينك .

خرج بلال والفرح يملأ نفسه ، وأسرع نحو الركائب
فإذا عليهن كسوة وطعام أهدهن إلى الرسول عظيم من
العظماء فحط بلال عنهن أحمالهن ، ثم علفهن وهو يكاد يطير
بهن فرحا ، ثم عمد إلى تأذين صلاة الصبح . ولما قضت
الصلاة خرج إلى البقيع ، فجعل إصبعه في أذنه وصاح :

— من كان يطلب من رسول الله دينا فليحضر .

وأخذ بلال يعرض ويبيع ويقضى . وأقبل اليهودي
يقال بلال :

— خذ دينك ولن أستقرض منك أبدا .

ومكر اليهودى مكرا ومكر الله مكرا ، فعاد اليهودى
يجر أذيال الخيبة والفشل ، واستمر بلال يبيع مما رزقه الله
حتى لم يبق على رسول الله دين فى الأرض ، وبقي مع بلال
أوقيتان من ذهب ، فانطلق إلى المسجد وقد ذهب عامة
النهار ، فإذا رسول الله فى المسجد قاعد وحده ، فلما رأى
بلالا قال :

— ما فعل ما قبلك ؟

ع قد قضى الله كل شىء كان على رسول الله ، فلم يبق
شىء .

— فضل شىء ؟

— نعم أوقيتان .

— انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من
أهلى حتى تريحنى منهما .

فانتظرا فى المسجد أن يأتيهما محتاج ، ولكن لم يأتيهما
أحد . فبات الرسول فى المسجد حتى أصبح الصبح ، وظل
فى المسجد طوال اليوم التالى ينتظر حضور محتاج ليكسوه
ويطعمه بما عنده ليستريح منه ، حتى لا يكون كانزا
للذهب ، وحتى لا يكون ممن قال الله فيهم : « والذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم
بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها

جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ،
فذوقوا ما كنتم تكنزون .

جاء آخر النهار ، وجاء إلى المسجد راكبان محتاجان ،
فأمر النبي بلالا أن ينطلق بهما ويكسوهما ويطعمهما بما
عنده ، ولما صلى النبي العتمة دعا بلالا وسأله :

— ما فعل الذي قبلك ؟

— قد أراحك الله منه .

— الحمد لله .

الى مكة

أطرق بلال يفكر ، فراحت الصور تمر في خياله ، فرأى
نفسه يوم هاجر من مكة ، جسيم الوثنية ، إلى يثرب ، مهد
الهدى والرشاد ، ثم رأى نفسه يخوض غمار الحروب لرفع
كلمة الله . رأى نفسه يوم أجد وتذكر ما أصابهم من بلاء .
ثم رأى نفسه يحمل التراب على عاتقه مساهما في حفر
الخندق يوم تحزب الكفار عليهم ، ورأى نفسه مع النبي
يقتص من بنى قريظة لنقضهم العهد ، ويحارب بنى المصطلق
من خزاعة ، وتذكر يوم انتصر في خيبر . لقد دارت عجلة
الزمن ، وانقضت السنون والأيام ، وما انقضت الحرب
الناشبة بين الكفر والإيمان : حاول الكفار أن يطفئوا نور الله
بأفواههم ولكن شاء الله أن يتم نوره ، فانتصر المسلمون على
من حولهم وقويت شوكتهم ، وتوطد الأمر لهم في يثرب ولم
يبق أمامهم إلا مكة ، فإذا أذل الله قريشا ، ومكنهم من
إخضاع مكة ، ظهرت كلمة التوحيد ، ودان العرب لله وحده .
وأحس بلال شوقا إلى الوطن الحبيب ، مهوى الفؤاد ،
فتمتم : « يا مكة يا أم القرى ، ترى أتكتحل عيناى برؤياك .

ثانيا ؟ » . وأطرق وهو لا يدري أن مكة قد أصبحت منه
قاب قوسين أو أدنى .

جلس النبي في المسجد ، وجلس صحبه حوله ، وراح
يفضى إليهم برؤيا رآها : « لتدخلن المسجد الحرام
إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين : فاشحذوا
عزمكم للسفر ، وخذوا أهبتكم للرحيل ، ولتكن غايتكم
العمرة والطواف » .

سمع بلال ذلك ، فاطمأنت نفسه ، واهتز طربا ، واجتاحه
السرور ، فقد أحيت رؤيا النبي موات الأمل في نفسه .
سيدخل مكة وسيستنشق عير تربتها ، وسيطوف بيبتها ،
وسيهول بين الصفا والمروة ، أجل عما قريب ستنطفىء نار
الشوق المتأججة في صدره ، هذه رؤيا النبي ، ومتى لم
تتحقق رؤياه ؟ إن كل ما رأى جاء مثل فلق الصبح وضوحا .
سيرى بلال مكة ، وسيضرب في أحياء بنى جمح حيث رأى
النور أول ما رأى ، فيالفرحه ويا لسروره !

وفي صبيحة اليوم التالي ، انضم بلال إلى إخوانه
الميممين صوب مكة : وانطلقوا والأمانى العذاب تتماثل لهم
في شكول وألوان ، انطلقوا ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد ،
ويسوقهم الأمل ، ويدفعهم الإيمان ، ولحقوا رجلا مقبلا
نحوهم ، ولما بلغهم اتجه إلى النبي وقال :

— ترامى إلى قريش خبر مسيرك يا رسول الله ، وهبط
عليهم حديث رؤياك .

— هيه يا بشر ! وبماذا قابلوا هذا الخبر ؟ وماذا أعدوا
لللقاء ؟

— إنهم يا رسول الله قد خرجوا ومعهم العوذ المطافيل ،
ولبسوا جلود النمر ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم
مسكة أبدا ، وهذا خالد بن الوليد ، وهو من يعدونه بهمتهم ،
وفارس حلبتهم ، قد خرج يستقبلك بخيله ، ولعله الآن في
كراع الغميم .

— يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، وماذا عليهم
لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك
الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين ،
وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ والله
لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله
أو تنفرد عنى هذه السالفة . من يخرج بنا إلى طريق غير
طريقهم ؟.

فتقدم رجل كان بصيرا بالطريق ، ثم أمسك بخنطام
القصواء ناقة الرسول ، وانطلق فى طريق والناس تتبعه حتى
خرج بهم إلى طريق سهل فسيح ، واستأنقوا سيرهم ، وفجأة
امتنعت ناقة الرسول عن السير ، وزجرها الرسول للقيام
فلا تقوم . وقال المسلمون : « خلأت القصواء » وبلغ ذلك

الرسول فقال : « والله ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . والذي نفسى بيده لا تسألنى قريش خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها » . ومشت السفارات بين محمد وقريش ، وأخيرا اتفق محمد والقرشيون على أن يرجع المسلمون بغير عمرة هذا العام ، فإذا كان العام المقبل ، جاء النبي وأصحابه إلى مكة ، وقد خلتها قريش ، فيقيمون فيها ثلاثا ، يقيمون وليس معهم من السلاح إلا السيوف في القرب ، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوزارها عشر سنوات ، ومن جاء المسلمين من قريش يرد عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون رده ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد دخل فيه .

علم بلال بصلح الحديبية هذا ، فعلا وجهه الوجوم ، وضاق صدره ، فقد انهارت آماله ، فلن يغمتر هذا العام ، ولن يرى مكة ، ولن تنطفئ نار الأشواق التى تعتبل في صدره . ودار الحديث بين المسلمين : حديث كله مرارة ، وكله ألم ، وراحوا يتساءلون : « كيف قبل النبي هذا ؟ كيف قبل النبي أن يرد من جاء مسلما ، وأن يترك من جاء قريشا مرتدا ؟ لقد بلغ القرشيون ما يريدون » . ولم يطق عمر هذا فانطلق إلى النبي وقال :
بـ أأست برسول الله ؟

- بلى .
- أولسنا بالمسلمين ؟
- بلى .
- أوليسوا بالمشركين ؟
- بلى .
- فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟
- أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .
- أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟
- بلى ، أفأخبرتكم أن تأتية هذا العام ؟
- لا .
- فإنك آتية ومطوف به .
- وكتب صلح الحديبية ؛ وقل المسلمون عائدين إلى المدينة ، وفي قلوبهم شوق إلى البيت ، وعطش إلى مكة مهوى الفؤاد .

لا اله الا الله

انتشر الخبر في يثرب أن قريشا نقضت العهد ، وفجرت في اليمين ، فقد أعانت حليفها على حليف محمد ، أعانت بكرا على خزاعة ، وانتشر خبر استنصار عمرو بن سالم النبي ونصر النبي إياه ، فشاع البشر ، فقد كان المسلمون يحسبون أن صلح الحديبية كان نصرا لقريش لا لهم ، وأنه قد كبلهم وحد من حريتهم .

وأرسل النبي رسله في أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على استعداد لتلبية ندائه ، ووفدت القبائل من مزينة وغفار وأشجع وسليم ، والتأم جيش المسلمين وأمرهم الرسول بالجد إلى مكة ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

علم بلال أنهم ميمون صوب مكة لفتحها ، مكة التي خرجوا منها مضطهدين هارين بدينهم ، مكة التي كانت تتراءى له في يقظته ومنامه ، مكة التي نبض قلبه بحبها أول ما نبض ، فعلاه البشر ، واكتنفه السرور ، وهاجت لواعج الشوق في نفسه ، فأغذ السير مع الجيش المنطلق إلى

الأرض المقدسة ، معللا النفس بقرب مشاهدة الوطن الحبيب .

وعسكر الجيش بالقرب من مكة ، واندلعت النيران ، فخرج أبو سفيان ليرى ما الخبر ؟ فرأى نيرانا وعسكرا ما رأى مثلها من قبل قط ، وقابل العباس عم النبي فسأله عن الخبر فقال العباس .:

— هذا رسول الله في الناس ، واصباح الناس إذا دخل مكة عنوة .

فانزعج أبو سفيان لما رأى ، وأيقن ألا قبل لقريش بهذا الجيش الزاحف . فقابل النبي وأسلم ، وذهب صائحا في مكة :

— يا معشر قریش ؛ قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن .

فدب الفرع في النفوس ، وأسرع الناس إلى المسجد والدور ، ووقف النبي فوق ذي طوى ، وتطلع إلى مكة ، فألفاها لا تقاوم ، فسجد فوق راحلته شكرا لله رب العالمين . ودخل بلال مكة مع النبي ، وراح يملأ صدره بهوائها ، ويمتع عينيه بمشاهدتها . لقد كان بلال ظمآن إلى مكة ، فلما دخلها بات مبرود الغليل . وطاف النبي بالبيت سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه اتجه إلى مكة فألقى الباب

مغلقة ، فأمر بلالا أن ينطلق إلى عثمان بن طلحة ليحضر
المفتاح ، ووقف على باب الكعبة وقال : لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب
وحده . « وعاد بلال وعثمان فقال النبي لعثمان : « هات
مفاتيحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » : وفتح الباب
ودخل النبي وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة ؛
وأغلق الباب ووقف بلال خلفه ، وصلى النبي ركعتين ثم
اتجه إلى الأصنام ، فرأى صورة الملائكة ، رأى إبراهيم
مصبورا في يده الأضلام يستقسم بها ، فقال : « قاتلهم الله ،
جعلوا شيخنا يستقسم بالأضلام . ما شأن إبراهيم والأضلام؟!
ثم رتل : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان
حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » . وجعل يطعن
الأصنام بعود في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل
إن الباطل كان زهوقا » .

وفتح باب السكبة ، فاندفع الناس إليها ، ودخل
أبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام ،
وجلسوا بفناء الكعبة ، وسأل النبي الناس :

— ما ترون أنى فاعل بكم ؟

— خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

— فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم أمر بلالا أن يؤذن ، فقام ليعتلى الكعبة ، فتطلع إليه الناس مذهولين ، وراحوا يتساءلون : « ما هذا العبد وكيف يجرؤ على أن يفعل هذا ، فما اعتلى البيت المقدس أحد من قبل ؟ ! » وكان بعض أقارب سعيد بن العاص واقفين فقالوا : « لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة » . واتجه الناس إلى أشrafهم يستنفرونهم ، فقال رجل من قریش للحارث ابن هشام :

— ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

— دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

واستوى بلال على الكعبة ، وانتظر القرشيون ما سيحل به من غضب الآلهة ، ولكن صوت بلال انساب عذبا ، فأطرق الجميع كأن على رؤوسهم الطير . وسيطر الهدوء على المكان ، ومس صوته أوتار القلوب فعبث بها ، وارتسم الخشوع على وجه المسلمين ، وأحس القرشيون رهبة ، وجلجل صوت بلال في أجواء مكة معلنا انتقضاء الوثنية ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

زواج بلال

هبت ريح الصبا فأنعشت القلوب ، ولفحت وجه بلال وهو في طريقه إلى المسجد ليأخذ عطاءه ، فأنعشت قواده ، وأحس نشوة وحاجة إلى من يكمله ، إلى من يثبه شوقه ، إلى زوجة يسكن إليها . وبلغ المسجد فأخذ عطاءه وفكر في أن يبقيه ، ولكن مر بخاطره ما دار بينه وبين رسول الله ، تذكر يوم دخل عليه الرسول ووجد عنده بعض أشياء فقال له : « يا بلال مت فقيرا ولا تمت غنيا . » فقال : « وكيف لي بذلك ؟ » قال : « ما رزقت فلا تخبىء وما سئلت فلا تمنع » فقال : « يا رسول الله وكيف لي بذلك ؟ » قال : « هو ذاك أو النار » تذكر بلال ذلك فأخذ عطاءه وخرج لينفقه في سبيل الله .

وراح بلال يضرب في أنحاء يشرب يبحث عن محتاج يتصدق عليه .

وفي سوق من أسواقها لمح أخاه مقبلا نحوه ، فتوقف عن السير ، ولما اقترب أخوه منه قال له بلال :

— من أين ؟

— من اليمن .

— وما تفعل هناك ؟.

— أخطب .

— وما تم في خطبتك ؟.

— زعمت أني من العرب ، وخطبت امرأة من اليمن ،
فلما سألوني عن قبيلتي وحسبي ونسبي كاشفتهم بالحقيقة ،
فقلت لهم : « إني حبشي ولد في مكة ، وفي قبيلة بني جمح ،
وإني أخو بلال بن رباح » . فقالوا لي : إن جاء بلال
زوجناك . فجئتك أطلب منك الرحيل معي إلى اليمن .
— سأنتقل معك بعد استئذان الرسول .

سجى الليل ، فامتطى بلال وأخوه راحليهما ، وخرجا
من يشرب ، وأغذا السير منطلقين صوب اليمن ، وراحا
يطويان الأرض ، ويستقبلان الليل والنهار حتى بلغا اليمن
والعومة ، فرغب أخو بلال في أن ينطلقا من فورهما إلى دار
من يرغب في مصاهرتهم ، ولكن بلالا قال له :

— لم هذه العجلة ؟ ولم نطرق أبواب الناس ليلا ،
فلنجمع الليلة ولنذهب مع الصباح .

وهجعا ليلتهما ، ولما فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت
الشمس أنوار السرج ، انطلقا إلى دار الخطيبة ، فلما بلغاها
استأذنا في الدخول فأذن لهما . قال بلال :

— أنا بلال بن رباح ، وهذا أخى ، امرؤ سوء في الخلق

والدين ، فإن شئتم أن تزوجه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا .

وانتهى ما جاء بلال من أجله واقترب وقت الصلاة ، فاتجه إلى المسجد ، وجلس ينتظر الأذان . وفيما هو في مجلسه إذ هتف به هاتف : « لم لا تتزوج ؟ وما يمنعك من أن تتم دينك ؟ قد جاء الله بالغنى وصرت حرا بعد أن كنت عبدا ؟ ! » فأطرق يفكر ، وأخيرا عقد العزم على الزواج . وقضيت الصلاة ، وانتشر الناس في الأرض ، وخرج بلال يضرب في الحى موطننا النفس على البحث عن زوجة تصلح له ، فراح يستقصى ممن يعرف عن زوجة طيبة فهدوه إلى هند الخولانية ، فذهب إلى أهلها يطلبها .

دخل بلال دار آل هند ، ولما أستقر به المقام قال :
— أنا بلال بن رباح ، صاحب رسول الله ، عبد من الحبشة ، كنت ضالا فهدانى الله ، وكنت عبدا فأعتقنى الله ، إن تنكحونى فالحمد لله ، وإن تمنعونى فالله أكبر .
— أمهلنا حتى نسأل رسول الله .

وترك بلال اليمن وعاد إلى يثرب ، وفى يوم من الأيام ، أتى آل هند إلى الرسول فى المسجد فسلموا وجلسوا ثم قالوا :

— نحن من اليمن وقد جئنا لنسألك عن بلال ، إن بلالا يرغب فى أن يتزوج هند أختنا ، وقد أمهلناه حتى نأتىك ،

وإننا نحب أن نسمع رأى رسول الله فيه .
— أين أنتم من بلال ، أين أنتم من رجل من أهل الجنة؟
وعلم آل هند مكانة بلال ، وحب الرسول له ، فوافقوا
على أن ينكحوه إياها .

تزوج بلال هنداً ، ومرت الأيام ، والصفاء يرفرف على
الزوجين والهناء يحتل الدار . وفى يوم جلس بلال مع زوجته
يجاذبها أطراف الحديث ، وذكر بلال حديثاً عن النبى ، فلم
تصدق زوجته وكذبت ، فغضب وثار ، وعقد ما بين حاجبيه
وترك الدار ، وقابله الرسول ففطن إلى غضبه وثورته ،
فسأله عما به ؟ فأقضى إليه بما دار بينه وبين زوجته ، فأتى
النبى زوجة بلال وقال لها :

— أثم بلال ؟

— لا .

— فلعلك غضبى على بلال ؟

— لا . إنه يحبنى كثيراً .

— ما حدثك عنى بلال فقد صدق . بلال لا يكذب ،

فلا تغضبى بلالاً . فلا يقبل منك عمل ما أغضبت بلالاً .

وعاد بلال إلى داره ، فتقدمت منه هند ، واعتذرت
إليه ، فصفت نفسه ، واثقشت تلك السحابة الداكنة التى
خيمت على الدار الصغيرة برهة ، وعاد الصفاء إلى الدار ،
ورفرفت السعادة بجناحيها عليها .

— ٨٨ —

محمد رسول الله

أذن بلال بالصلاة ، وانتظر الناس خروج الرسول ليؤمهم ، ومرت لحظات ولم يخرج فأحس الناس قلقا ، فقد كانوا يعلمون أن النبي يشكو ألما في رأسه . وأخذوا يتلفتون نحو الباب ، ولكن الرسول لم يظهر . فاتجه بلال إلى الباب وطرقه ، فأقبلت بريرة خادم النبي فقال بلال :
— أنبئني مولاك أن الناس تنتظره .

فاتجهت بريرة إلى النبي — وكانت عائشة وفاطمة بجواره — وقالت :

— قد دعا بلال إلى الصلاة .

فقال النبي :

— أوصلي الناس ؟

— لا . هم ينتظرونك يا رسول الله .

— ضعوا لي ماء في المخضب .

وحاول النبي النهوض ولكنه ناء مغشيا عليه ، فأسرعت

فاطمة إليه في جزع وقالت :

— إنه ينوء .

وهرولت عائشة وصاحت :

- أدركوني قد أغمي عليه .
وأخذت عائشة وفاطمة تمرضانه . ولما أفاق سأل :
— أصلى الناس ؟
فقلت عائشة :
— لا تترك فراشك يا رسول الله ، مر من يصلى
بالناس .
— مروا أبا بكر فليصل بالناس .
وأسرعت بريرة نحو الباب صادعة بالأمر ، وقالت
لبلال :
— قال رسول الله : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .
راح بلال يبحث بعينيه عن أبي بكر فلم تقع عيناه
عليه ، ولكنه رأى عمر ، فأسرع إليه وطلب منه أن يصلى
بالناس ، فنهض عمر وكبر ، وبلغ تكبيره آذان النبي فسأل :
— صوت من هذا ؟
فقلت فاطمة :
— هذا عمر بن الخطاب .
فقال النبي :
— لا . لا . يا بى الله ذلك والمسلمون . يا بى الله ذلك
والمسلمون .. أين أبو بكر ؟ أين أبو بكر ؟
فقلت عائشة :
— لعله غائب .

- ضعوا في المخضب ماء حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم .

وأسرعت بريرة وأبلغت من في المسجد برغبة الرسول . فحدث هرج . وعلم عمر أن النبي لم يأمره بأن يؤم الناس ، فاتجه إلى بلال يعاتبه ، فقال عمر :

- ويحك ما صنعت بي يا بلال ؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله أمرك بذلك ، ولولا ذلك ما صليت بالناس .

- والله ما أمرني رسول الله بذلك ، ولكن حين لم أربأ بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس .

ودخل أبو بكر من باب المسجد ، فأسرع إليه بلال وأمره أن يصلي بالناس ، فأمر أبو بكر المسلمين ، وابتدأت الصلاة ، وخرج النبي إلى المسجد معصوب الرأس ، فلما لمح الناس النبي سرت فيهم موجة من الفرح ، وانتشت نفوسهم لرؤياه بارئاً ، وأحس أبو بكر حركة بين الصفوف ، فعلم أن رسول الله قد أقبل ، فتراجع ليخلى له مكانه ، ولكن النبي دفعه بيده ليقبضه . ثم جلس إلى يمينه وصلى قاعداً .

وقضيت الصلاة ، فانجفل الناس إلى النبي فرحين ،

وما دار بخلدهم أن لقاءهم هذا هو اللقاء الأخير ، ولو علموا ذلك لا تقلب فرحهم ترحا ، وسرورهم حزنا وغما .

ارتفع صياح من دار الرسول ، وسمعه المسلمون ، فأسرع العباس ودخل الدار وأغلق الباب خلفه ، وما لبث أن خرج حزينا ، فجزع الناس وأسرعوا إليه يسألونه :
— يا عباس ما أدركت منه ؟ .

— أدركته وهو يقول : « جلال ربى الرفيع قد بلغت » ، ثم قال : « واكرياه ! لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات . اللهم أعنى على سكرات الموت » .

وأطرق الناس ، وغشى وجوههم الإظلام ، وبان عليهم الذهول ، وارتفع الصياح ثانية ، فراح الناس يتساءلون في حيرة وقلق : « أمات رسول الله ؟ أمات رسول الله ؟ »
وحدث بينهم هرج فقد كذبوا خبر موته ، وما استطاعت عقولهم أن تصدق ذلك الخبر الفاجع ، ولكن لما أنبأهم أبو بكر بالرزء القادح ، وتيقنوا من أن رسول الله قد قضى ، صاحوا جميعا فارتجت المدينة صيحة واحدة .
وراح كبار الصحابة يسكون الدمع الهتون .
وحزن بلال حزنا شديدا ، وانهمر الدمع من عينيه . لقد مات الرسول الأمين ، وذهب صاحب الوفاء الكريم .
ودخل بلال ليلقى على النبى الحبيب نظرة وداع ، وليتزود

منه بالنظرة الأخيرة ، فألفاه مسجى على سريريه ، فأحس غصة في حلقه ، وترقرق الدمع في عينيه ، وراح يصلى وفؤاده مثقل بالشجون ، ولما انتهى من صلاته خرج مطاطيء الرأس ، حزين النفس ، وانطلق إلى داره لينزوى في بيت الأحران .

خيم الحزن على يثرب ، وأقبل الليل ورسول الله في داره لم يقبر بعد . حاول بلال النوم ولكن لم تغمض له عين . وراحت نفسه تعمل : فتذكر عطف الرسول وحده عليه وحبه له ، فازداد حزنا على حزن . وانقضى الوقت وئيدا وئيدا ، وطال ليل بلال كأن الليل ليس له نهاية ، وأخيرا ظهرت تباشير الفجر ، فخرج بلال قاصدا المسجد ليؤذن الفجر ، فسار بخطى ثقيلة ، وانطلق بنفس شفها الحزن ، وبلغ المسجد ودخل ، فوقع بصره على باب الرسول مقفلا ، فقامت عيناه بالدمع ، فلن يخرج الرسول إليهم منه أبدا ، ولن يتجه بلال إليه ليخبر النبي أن الناس في المسجد ينتظرونه ليؤمهم ، فلن ينتظروه بعد اليوم ، وستتجه أنظارهم إلى باب آخر يلقظ في المسجد ؛ إلى باب أمر الرسول ألا يسد يوم أن أمر أن تسد جميع الأبواب إلا باب أبي بكر خليفة رسول الله .

واعتلى بلال المسجد وقد نال منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت حزين :

الله أكبر ! الله أكبر !

الله أكبر ! الله أكبر !

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن ...

وخنقت بلالا العبرات فما استطاع أن يذكر اسم
الرسول الحبيب ، والرسول مسجى في سريره ، فأجهش
بالبكاء ، وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال ، فتجددت
الأحزان ، فبكوا ، وراح بلال يغالب نفسه ويتحكم في
عواطفه ليتم الأذان ! وأخيرا ردد بصوت فيه حزن ، وفيه
بكاء :

أشهد أن محمدا رسول الله

أشهد أن محمدا رسول الله

حي على الصلاة ، حي على الصلاة

حي على الصلاة ، حي على الصلاة

حي على الفلاح ، حي على الفلاح

حي على الفلاح ، حي على الفلاح

الله أكبر ، الله أكبر

لا إله إلا الله

مؤذن الرسول

دفن النبي وفي نفوس الناس لوعة وأسى ، وفي مآقي القوم دمع ينهمر ، وخرج الناس إلى المسجد مطأطئي الرؤوس ، ينعكس على وجوههم ما في صدورهم من حزن شديد ، وراحوا يكفكفون الدموع ، وخيم على المكان صبت رهيب ، ثم ابتدأ الناس يهمسون ، وارتفع الهمس حتى صار حديثا ، فتذكروا ما حدث بالأمس في سقيفة بني ساعدة من مبايعة عمر وأبي عبيدة بن الجراح لأبي بكر ، وموافقة الأنصار على ذلك ، وراح يبايع من لم يبايع بالأمس ، فتمت البيعة وأصبح أبو بكر خليفة رسول الله . واعتلى أبو بكر المنبر ، وخطب خطبة أبان فيها سياسته ، ولما انتهى منها بقى الناس في المسجد ينتظرون الصلاة ، فقد اقترب أوانها . واختار بلال ناحية منعزلة ، وجلس وأطرق ، وكان الأسى مرتسا على وجهه . وشرذ فكره ، فعاد به إلى سنوات خلت ، إلى أيام كان عبدا في مكة وتمثلت له أيام اضطهاده وتعذيبه ، أيام كان أمية يخرج إلى بطحاء مكة ويضجعه على الرمضاء . وعادت إلى خياله مشاهد أيام كان مع النبي محاصرا في شعب أبي طالب لا يجد ما يتبلغ به أو يسد به رمقه ، ورأى هجرته وجهاده

يوم بدر ، وقتل أمية بن خلف ، وتذكر يوم أحد ، يوم
ثبت مع النبي بضع نفر يذودون عنه ، ويعرضون صدورهم
للسهام جاعلين نحورهم دون نحره ، يوم ألقت امرأة قربتها
من على متنها وحملت رمحا لتذب به عن الرسول الكريم ،
وتفكر بلال ما مر به من مشاهد عظام وأحداث جسام ،
فأحس حينئذ ، فما أحلى أيام الكفاح ، أيام الاضطهاد في
سبيل الرأي والعقيدة ، أيام احتمال الشدائد والصبر على
الأذى ، فلا يزيد التعذيب إلا صقلا وعزما . ومر بخاطره
سؤال : « ترى هل تعود مشاهد كتلك المشاهد التي طواها
الزمن ، وأضحت كأسطورة من الأساطير ؟ ترى أيجود
الزمن بأبطال يذلون أرواحهم في سبيل عقائدهم عن طيب
خاطر كما فعل أصحاب الرسول ؟ » إنه لا يظن ، فأين من
يبث في أصحابه روح التضحية كما بثها النبي ؟ أين من يلقي
أتباعه أن الموت والحياة سواء ، بل الموت الكريم أفضل من
حياة الذل ؟ أين من يستحق أن يبذل الإنسان روحه فداء له
عن طيب خاطر بعد النبي ؟ وكاد يركن إلى أن هذه المشاهد
لن تعود ، وإلى أن الزمن بأمثال هؤلاء الأبطال الذين
ضحوا بأنفسهم في سبيل عقيدتهم لن يجود ، ولكن هتف
به هاتف : « ولم لا تعود هذه المشاهد ؟ ، ولم يندم أمثال
هؤلاء الأبطال ؟ ، ألا نرسول الله قضي ؟ ! فلئن كان
رسول الله ولي إن تعاليمه باقية ، ستنفخ في الأجيال الآتية

روحا قوية فتية وستخلق أبطالا صناديد يكونون هم الخلف
لخير سلف . إن كان رسول الله ولي ، فإن دين الله باق ،
وقرآن الله باق ، والله يرعى عباده ، ويحفظ دينه » .
وأطرق بلال قليلا ، ثم تذكر حب النبي له ، وعطفه عليه
فعاوده الأسي ، ونغمم : « إن في موته خسارة ، ولكن
هذا قضاء الله فصبرا جميلا » .

وحان وقت الصلاة ، وانتظر الناس سماع صوت بلال ،
ولكن بلالا بقى في مكانه مطرقا ، فحسب الناس أنه
ما فطن إلى حلول الأذان ، فاتجه أحدهم إليه وقال :
— الأذان يا بلال ! .

— لن أؤذن بعد اليوم ، فليؤذن غيرى .
وخرج أبو بكر من الباب اللافظ في المسجد ، وقال :
— أين بلال ؟ .

فتقدم بلال ووقف أمام خليفة الرسول ، فقال له :
— أذن يا بلال ! .
— لا ! .

— ولم يا بلال ؟ ! .
— إن كنت إنما أعتقتني لأكون معك فسبيل ذلك ،
وإن كنت أعتقتني لله فخلني وما أعتقتني له .
— ما أعتقتك إلا لله .
— فإني لا أؤذن لأحد بعد وفاة رسول الله .

طلب الجهاد

المدينة في حركة دائبة ، والناس يغدون ويروحون في نشاط ، والرجال يسرعون في عدة القتال للانضمام إلى جيش أسامة الذي سينطلق عما قريب إلى بلاد قضاة من الشام ليقتص لزيد بن الحارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله ابن رواحة قواد الجيش الإسلامي الذي قتلوا في غزوة مؤتة في عهد الرسول . وخرج أسامة بن زيد بن الحارثة ، وهو فتى في التاسعة عشرة من عمره معتليا صهوة جواده ، منطلقا إلى حيث كان الجيش . لقد اختار النبي أسامة لقيادة الجيش قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وقد طلب كثير من الصحابة من أبي بكر إيقاف جيش أسامة ، محتجين بأن الأمور قد تبدلت بعد موت الرسول ، ولا يعلم أحد ما يستجد من الأمور إذا علمت القبائل موت محمد . ولكن أبا بكر قال : « لو خطفتني الكلاب والذئاب لا أرد قضاء قضى به رسول الله » . وأمر بإنفاذ جيش أسامة .

وقف الجيش ينتظر حضور خليفة رسول الله ، ولمح الناس أبا بكر مقبلا راجلا ، ومن ورائه عبد الرحمن بن عوف (بلال)

يقود راحلته . وهم أسامة بأن يترجل ، فأشار إليه أبو بكر
أن يبقى ، فقال أسامة :

— يا خليفة رسول الله .. والله لتركبن أو لأنزلن .
— والله لا تنزلن ، والله ولا أركب . وما على أن أغبر
قدمي في سبيل الله ساعة ، فإن للغازی في كل خطوة سبعمئة
حسنة تكتب له وسبعمئة درجة ترفع له ، وأن ترفع عنه
سبعمئة خطيئة .

وأقبل بلال لايسا عدة القتال ، واتجه إلى أبي بكر ،
فلما لمحّه قال :

— إلى أين يا بلال ؟
— جئت أطلب منك الإذن بالخروج في جيش أسامة .
— ابق يا بلال .
— يا خليفة رسول الله ، لقد شعرت بفزع في نفسي بعد
فراق الرسول ، فرأيت أن أخرج للجهاد .
— إني في حاجة إليك يا بلال .
— يا خليفة رسول الله ، إني سمعت رسول الله يقول :
« أفضل أعمال المؤمن الجهاد في سبيل الله » . وقد أردت
أن أربط في سبيل الله حتى أموت .
— أنشدك الله يا بلال ، وحرمتي وحقّي إلا بقيت .
فطأماً بلال رأسه وصمت ، وقال أبو بكر :

— هيه يا بلال ؟ .

— سأبقى .

والتفت أبو بكر إلى أسامة وقال :

— يا أسامة ، اصنع ما أمرك به نبي الله ، ابدأ ببلاد
قضاة ، ثم أت إبل ، ولا تقصرن من أمر رسول الله ،
ولا تعجلن لما خلفت من عهده .

— سمعا وطاعة .

— إن أردت أن تعينني بعمر فافعل .

وكان عمر في جيش أسامة ، فأشار أسامة له فخرج من
بين الصفوف . وأشار أبو بكر لجيش أسامة بيده وقال :
— اندفعوا بإذن الله .

وانطلق الجيش ، وعاد أبو بكر وعمر وبلال إلى المدينة .

المفاضلة

ارتد كثير من القبائل عقب موت الرسول ، وامتنع خلق كثير عن تأدية الزكاة ، فعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال هؤلاء المرتدين ، فانتصر عليهم ، وأرغمهم على أن يؤتوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

وفي ليلة من ليالى الربيع ، بعد انقضاء حروب الردة ، وعودة السكينة إلى يثرب ، تكوئت حلقة من السامريين في ضوء القمر الذى أضفى على المكان ثوبا جميلا ، وأخذ السمار بأطراف الحديث ، وراحوا يتنقلون من حديث إلى حديث ، حتى ذكروا أبا بكر وما قام به فى حروب الردة من أعمال جسام ، وما له من أفضال على الإسلام ، قال أحدهم : — إن أبا بكر رجل رقيق محبب ما فى ذلك شك ، عظيم جليل ما فى ذلك شك ، ولكن هناك من يقف معه على قدم المساواة فى التضحية ، بل هناك من ييزه فيها .

فقال الأول :

— ومن هذا ؟

— بلال .

— بلال بن رباح ؟

- أجل .

- كيف هذا ؟! وعلام بنيت حكمك الجائر ؟

- امتحن بلال امتحانا قاسيا رهيبا فشبت ، ولم يمتحن

أبو بكر .

- لم يمتحن أبو بكر ؟ ألم يعذب ويضطهد ؟ ، ألم

يضرب حتى غشى عليه وسال الدم من وجهه ؟

- اضطهد كما اضطهد غيره ، ولكنه لم يضطهد

الاضطهاد المروع ، ولم يعذب العذاب الأليم ، ولم يذق المر

الذى ذاقه بلال . لقد كان بلال يرى الموت أقرب إليه من

حبل الوريد ، ومع ذلك ثبت ولم يتزعزع . كان لأبى بكر

قبيلته التى تحميه ، وكان يجد من يجيره فيمنع عنه أذى

القوم ، أما بلال فقد كان عبدا ، وكان لسيدته أن يقتله دون

أن يسأله أحد لم فعل ذلك ، وعلى الرغم من علمه بهذا فقد

أعلن إسلامه ، وثار على معتقدات سيده ، وسفه أحلامه ،

وثبت للوعيد ، ولم يأبه للتهديد ، واحتمل الاضطهاد

صابرا ، وذاق العذاب فلم يتزعزع ، ورأى الموت فازداد يقينا

على يقين .

فقال الأول لصاحبه وهو يحاوره :

- أبلال وحده الذى تعرض للموت ؟ لقد تعرض له

كثير من المسلمين ، وتعرض له أبو بكر أيضا .

- ومتى هذا ؟

— هاجر أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعلم علم اليقين أن قرشا ستقتفى أثرهما ، وأنها ستقتلها لا محالة إن عثرت عليهما ، ومع علمه هذا رافق النبي في هجرته ، معرضا نفسه للموت عن طيب خاطر في سبيل عقيدته .

— ولكن قرشا لم تعثر عليهما ، فلو أنه وقع في أيدي القوم وامتحن ، لأمكننا أن نرى قوة احتماله . وما يدرينا أنه لو امتحن لنال منه القوم ما يرغبون كما نالوا ذلك من كثير من المسلمين . ما يدرينا أنه كان يطاوع القوم وينطق بما يريدون كما فعل عمار بن ياسر بما راودوه عن نطقه .

— احتمل عمار بن ياسر الأهوال ، ولم ينطق به إلا بعد أن رأى أباه يقتضى تحت وابل من قذائف الحجارة ، وأمه تجود بأنفاسها أمام عينيه بعد أن صوب أبو جهل رمحه إليها وحمل عليها ، فأصابها في موضع العفة منها .. إنه لم ينطق بما نطق به إلا بعد أن وضعوا الحجارة المحماة بالنار على صدره ، أو بعد هذا جئت اليوم تؤاخذة ؟ وبعد أن عفا الله عنه وأنزل فيه « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » تأتي اليوم لتعرض به ؟

— على رسلك يا سيدى ، ما أردت أن أوأخذة أو أهون من شأنه . ولكنى ما سقت هذا إلا لأدلل على أن بلالا ، وبلالا وحده هو الذى ثبت للاضطهاد ولم ينطق بما

يشتهون . يا لعظمة بلال ، وهو تحت الصخرة يئن ويتوجع ، ولا يردد إلا ما يكرهون . لقد كان أبو جهل جبار الأُمس بجوار بلال وهو تحت الصخرة ضعيفا لا حول له ولا سلطان . أذله بلال ونال من كبريائه ، وجعله حائرا لا يدرى أيطلقه ، وفي ذلك آية فشله ، أم يقتله ، وفي هذا دليل عجزه . لقد كان بلال وهو تحت الصخرة يئن ويتوجع سيد الموقف بلا مرء ، أرغمهم على أن يبيعوه لأبى بكر لما أقبل لشرائه ، لأنهم ما كانوا يدرون ما يفعلون لإيقاد موقفهم وإيهام الدهماء أنهم سادة الأمر ، القابضون على زمامه . فقبلوا أن يبيعوه وهم يتنفسون الصعداء لخروج ذلك الطود العظيم الذى كسرت كبرياؤهم تحت قدميه من أيديهم . قبلوا أن يبيعوه عن طيب خاطر حتى لا يتجرعوا كأس الفشل إذا أصبحوا ، ولا يتجرعوه إذا أمسوا ، يا لبلال العظيم ، إنه سيد المتحنين بلا منازع .

— خفف من غلوائك يا سيدى ، فإن مكانة أبى بكر لا يتسامى إليها أحد ، ولا يطمع فى أن يرقى إليها إنسان . اختاره النبى ليصعبه فى هجرته ، وليصلى بالمسلمين مكانه ، وقال فيه : « إن كنت متخذًا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » . واختاره المسلمون ليكون خليفة للرسول . — إن كان النبى قد اختار أبا بكر ليصعبه فى هجرته ،

فقد اختار بلالا ليكون خازن ماله ، ولم يختار أحدا غيره من صحابته ، وفي هذا دليل على عظم مكانته عنده .

— شهد عمر وأبو عبيدة وسائر المسلمين لأبي بكر بأنه أفضل المسلمين بعد النبي ، فبايعوه لذلك ، فلو كان بلال أفضل منه لما أحجموا عن مبايعته .

— وقد شهد عمر لبلال بالفضل ، فقال يوم أعتق أبو بكر بلالا : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .
— فلولا أبو بكر ما اهتدى بلال .
— لولا الله ما اهتدينا جميعا .

وتلفت أحدهم فلمح شبحا قادما ، فأشار للسمار إشارة السكوت ، فتساءلوا : « ما هنالك » .

فقال لهم :

— بلال قادم .

فالتزموا جانب الصمت ، وأقبل بلال وحياهم وجلس ، واستمروا على صمتهم ، ولاحظ بلال كثرة تلفتهم ونظرهم بعضهم إلى بعض ، فأحس أن وراء ذلك شيئا ، فسأل :

— ما هنالك ؟

فقال أحدهم :

— كانوا يذكرون فضلك ، وما قسم الله لك من خير .
— إنما أنا حبشي كنت بالأمس عبدا .
وجمع أحدهم أطراف شجاعته وقال :

— إن أناسا هنا يفضلونك على أبى بكر .
فتغير وجه بلال ، ونهض من مكانه غاضبا وقال :
— كيف يفضلوننى عليه ، وأنا حسنة من حسناته ؟

استئناف الجهاد

اشتبكت الجيوش الإسلامية مع جيوش الفرس في العراق ، وجيوش الروم في الشام ، ودارت المعارك الطاحنة بين الدولة الفتية والدولتين المسيطرتين على العالم ، وراحت أنباء الانتصارات تتدفق على المدينة ، فتشيع البهجة في النفوس ، ويلقى الأمل الصدور ، فقد لاح في الأفق تباشير فجر جديد لعهد جديد ، كله عز وسؤدد وسلطان . وكانت هذه الأنباء تبلغ بلالا فيحس فرحا عظيما ، ولكن كثيرا ما كان يمتزج بهذا الفرح شيء من الأسى ، فقد كان يحزنه ويحز في صدره قعوده عن الجهاد مع المجاهدين ، وكان يتمنى في قرارة نفسه أن تتاح له فرصة استئناف الجهاد والقتال في سبيل الله ، ولكن أنى له هذه الفرصة وأبو بكر لا يصرح له بالخروج للغزو ، ويستبقيه بجواره كما كان بجوار الرسول ؟

ومرت الأيام وأنباء الانتصارات تتوالى ، فازداد حنين

بلال إلى الجهاد ، وأحس رغبة ملحة ، فوطن العزم على طلب الخروج للجهاد ثانية ، ولكنه علم أن أبا بكر مريض ، فأجل طلبه على مضض حتى يبرأ خليفة الرسول . ولكن ثقل المرض على أبي بكر ، ووصى بعمر بن الخطاب من بعده ، ثم مات أبو بكر فحزن عليه بلال مولاه الذي أخرجه من الظلمات إلى النور ، ونجاه من عذاب قریش الريب ، وأطلق سراحه لله ، فصيره حرا أييا بعد أن كان عبدا ذليلا .
وأتى بلال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، واستأذنه في الخروج للجهاد ، فقال له عمر :

— ألا تبقى يا بلال بجواري كما كنت بجوار النبي وأبي بكر ؟.

— أحن إلى الجهاد يا أمير المؤمنين . ولا أستطيع عليه صبرا .

— ابق يا بلال فإني في احتياج إليك ..

— بالله دعني ولا تحرمني الأجر والثواب .

— لك ما تريد يا بلال . وإلى أين تتجه ؟.

— سألق بأبي عبدة في الشام .

— سر على بركة الله .

أحس بلال بموجة من السرور تجتاحه ، فقد كتب له أخيرا أن ينال أمنيته التي طالما داعبته عقب وفاة الرسول ، كتب له أن يعاود الجهاد الذي يحن إليه ، وتصبو إليه

نفسه ؛ وكتب له أن يعمل ثانية على نشر دين الله الذي عذب فيه واضطهد من أجله . وانطلق إلى داره وهو يشعر بفرح السجين الذي أطلق سراحه ، ودخل على زوجته وقد بان البشر في وجهه فابتدرته :

- خيرا ؟ .

- الرحيل ، الرحيل .

- إلى أين ؟ .

- إلى الشام . إلى الجهاد .

وخرج بلال وزوجه من يثرب ضاربين في الأرض ، تاركين الأهل والوطن خلفهما ، ميممين صوب الشام ابتغاء مرضاة الله . وأغذا في السير ترفعهما النجاد وتحطهما الوهاد ، ويتتابع عليهما الليل والنهار ، وتنطوي الأرض تحت أرجل راحلتيهما ، حتى بلغا جيش أبي عبيدة ، فانضما إليه ، وراحا يزحفان مع الجيش الزاحف صوب بيت المقدس .

حاصر المسلمون بيت المقدس ، وامتد الحصار ، وأبى حاكم المدينة أن يسلمها إلا للأمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه . فأرسل أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين ينبئه بالخبر ، فبعث عمر إلى قواد جيشه أن يجتمعوا به في الجابية قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس ليشاورهم في الأمر .

واتجه أبو عبيدة إلى الجابية ، وصحب بلالا معه . والتأم عقد القواد ، وجاء عمر ، فأقبل عليه اناس معانقين ،

وسار بلال إلى ركابه . وحان وقت الصلاة ، فطلب الناس من عمر أن يأمر بلالا بالأذان ، ففعل عمر ، ونهض بلال للأذان فأرشف الناس سمعهم ، وانطلق صوت بلال العذب الحنون الذى طالما سرى في المدينة على عهد الرسول يدعو الناس إلى الصلاة ، فأهاج الذكريات ، فبكى الذين حضروا النبي لذكرى الرسول الحبيب ، وبكى عمر حتى بل لحيته ، وبكى الذين لم يروا النبي لبكاء إخوانهم . وأتم بلال أذانه وبقي الناس في صمتهم ، وسيطر على المكان سكون كسكون الرموس ، حتى كبر عمر فاصطف الناس خلفه ، وراحوا يصلون في خشوع . ولما قضيت الصلاة أراد عمر التوجه إلى بيت المقدس لتسلم مفاتيحها ، فأشار عليه المسلمون أن يغير ثوبه المرقع ، وأعطوه ثوبا أبيض بسيطا فارتداه ، وطرح على عاتقه منديلا من كتان ، ثم قدم إليه برذون أشهب من براذين الروم ، فامتطاه ، وراح البرذون يتبختر ، فنزل عنه عمر مسرعا وقال :

— أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر ، وإنى سمعت رسول الله يقول : « لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من الكبر » ولقد كاد أن يهلكنى ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج .

ونزع الثوب الأبيض ، وارتدى مرقعته .

وانطلق الركب صوب بيت المقدس ، وأخذ بلال وعمر
بأطراف الحديث ، وما أن لمح الناس ركب أمير المؤمنين
حتى ضجوا بالتكبير ، فارتج الفضاء ، وكان نذيرا لأهل
المدينة بأن عمر قد جاء ، فأطل حاكم المدينة من السور ،
وطلب أن يرى بنفسه عمر عن قرب . فتقدم عمر : وأراد
أصحابه منعه خشية أن يصيبه مكروه ، فقال :
- « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا
وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وأمضى بعيره ، وانطلق صوب السور بقلب عامر
بالإيمان وما أن رآه حاكم المدينة حتى صاح :
- هذا والله صاحب محمد بن عبد الله ، افتحوا الباب .
فتحوا الباب ، وخرج الناس إلى عمر يسألونه العهد
والميثاق والذمة ، فلما رآهم اغرورقت عيناه ، وخر ساجدا
على قتب بعيره شكرا لله رب العالمين .

واندفع المسلمون إلى بيت المقدس ، ودخل بلال مع
الداخلين ، وراح يجوب المدينة التي أورثهم الله إياها ،
وتذكر يوم قال لهم النبي إن الله سيورثهم ملك فارس وملك
الروم ، فغمغم : « صدقت يا رسول الله . أين من كانوا
يكذبونك ليروا جيوشك المظفرة تكتسح جيوش الفرس
والروم ؟ أين من كانوا يسخرون منك ليدوقوا الخزي

العظيم ؟ أين أمية وأبو جهل وشيبة ليروا نصرك المبين ؟
أين أنت يا رسول الله ؟ إنى لأحس بك بجوارى كما كنت
يوم الفتح المبين » .

وترقرق الدمع في عينيه وغمغم : « عليك رحمة الله
يا رسول الله » .

الرق في الاسلام

اجتمع بلال ببعض الذين أسلموا أخيرا في الشام .
وراح يفقههم في دينهم ، فقال أحدهم :
- حرم الإسلام أشياء كثيرة ؛ حرم الخمر والميسر
والزنا ، فلم لم يحرق الرق ؟
فقال بلال :

- تعلمون أن العالم قائم على أعناق الرقيق ، فلو أن
الإسلام حرمه دفعة واحدة ، لكان في ذلك إضرار بالسادة
والعبيد والمجتمع ، فالسادة سيخسرون كثيرا ، وكثير من
العبيد سيجدون أنفسهم بلا عائل يعولهم فيضطرون إلى
ارتكاب المحرمات ليسدوا حاجاتهم ، فيسوء الحال ،
ويضطرب النظام .

وسأل آخر : وما فعل الإسلام بالرقيق ؟
فقال بلال : فعل ما لم تفعله شريعة أخرى ، فالتوراة
أمرت بالرق ، والدين المسيحي لم يتعرض له ، في حين أن
الإسلام لم يترك فرصة من الفرص إلا حث فيها على تحرير
العبيد ، ووعد الذين يحررون ما ملكت أيماهم بجنان
عرضها السماوات والأرض . وقد جعل الإسلام الإعتاق من
أول واجبات الإنسان الشاكر لنعم ربه . قال تعالى : « ألم
نجعل له عينين ، ولسانا وشفقتين ، وهديناه النجدين ،
فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام
في يوم ذي مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » .
وقال في كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير
رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .
وقد أراد الإسلام أن يحرر العبيد من الرق على ألا يوقع
حيثا بساداتهم ، فجعل للرقيق نصيبا من الزكاة يفتدون به
أنفسهم من ساداتهم . قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء
والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب
والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » . وقد شرع الإسلام
نظام التحرير بالمكاتبة ، وهذا يقضى بأن العبد إذا ما آانس
من نفسه قوة على الكسب وقدرة على سداد ثمنه ، وطلب
من سيده أن يكاتبه على أن يعمل ليجمع مالا يفك به رقبة
نفسه ، فما على سيده إلا الموافقة . قال الله في ذلك :

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » .
فقال ثالث : لقد وصى الإسلام الرقيق .

قال بلال : وأوجب الرفق بهم والإحسان في معاملتهم .
ولم يترك النبي الكريم فرصة إلا أوصى فيها بالرقيق ، فقد قال : « اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة » . وقد توفي وهو يقول : « اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم » .
وقد حجب في إعتاق الرقاب بقوله : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار » . وقد وجد الأرقاء في دولة الإسلام عظفا وبراً أنساهم ذل الرق وعذاب الاستعباد ، حتى إن بعض الرقيق فضل مولاه على أهله وعشيرته .

وسأله رابع : وكيف ذلك ؟

فقال بلال : لما تزوج النبي السيدة خديجة وهبته زيد ابن حارثة عبداً له ، وبقي زيد مع النبي قرير العين ، رضى النفس ، وقدم إلى مكة وفد من بنى حارثة يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته بتحريره من رقه ، فقال لهم النبي : « إن اختاركم فخذوه من غير ثمن » . ولما جرى اختار الرق مع النبي على الحرية بين قومه .

قال أحدهم : هذا عجيب !

فقال بلال : « لا ، ليس هذا بعجيب ، إن عطف المسلمين على أرقائهم عوضهم عطف الأهل ، بل أنساهم الأهل

والصحاب . فإني لما أطلق سراحى أبو بكر رضى الله عنه تبعته ولم أطق مفارقتة لعطفه على ، ولما هاجر إلى المدينة نزلت في داره وصرت مولى له ، وبقيت لا أطيع صبرا على بئعه حتى قبض .

جاء الإسلام ولم يفرق بين العبد ومولاه ، قال الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولم يأنف الإسلام من أن يولى العبيد المناصب الرفيعة ، فقد أسند النبي قيادة الجيوش لزيد بن حارثة وابنه أسامة من بعده ، كما زوج الرسول زيد ابنة عمته زينب بنت جحش ، وما كان لعبد أن يفكر في هذا ، وما كان هذا ليقع في قبيلة متواضعة ، فما بالك في قبيلة عريقة النسب كقبيلة قريش ، ولكنه الإسلام الذى خضع من شنوكة العصبية للقبيلة ، وسوى بين الناس .

فقال آخر : كل هذا جميل ، وأجمل منه أن يحرم هذا النظام الجائر .

فقال بلال : سبق أن قلت لك إن في تحريم الرق طفرة ضررا بالسلالة والعبيد جميعا ، ولكن الإسلام عالج الأمر بأن خفف عن العبيد الحاليين وجب في إعتاقهم ؛ ووضع من الشروط ما يكفل أن يقضى على الرق في المستقبل ؛ فقد حرم الإسلام الرق ، وأباحه في حالة واحدة هي حالة وقوع حرب شرعية بين المسلمين وغيرهم ممن يعتدون عليهم ،

ويفتنونهم في دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ؛ فإن لإمام المسلمين أن يضرب الرق على أسرى الحروب ، وله أن بمن عليهم ويخلي سبيلهم ، وله أن يفتدى بهم أسرى المسلمين . ولقد أبيع الرق في هذه الحالة حياة للدين : وكسرا لشوكة من يريد إيذاء المسلمين وإطفاء نور الله . إنني أعتقد أن هذه الحالة الوحيدة ستنتفي عقب استتباب الأمر للمسلمين ، فيزول هذا النظام البغيض من الوجود .

قال أحدهم : قد يوسوس الشيطان لبعض ضعاف النفوس خطف الأطفال والنساء وبيعهم في سوق الرقيق . قال بلال : قد حرم الإسلام هذا وتوعد فاعليه بعذاب أليم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكल ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » .

فقال آخر : كثيرا ما أسائل نفسي عن كيفية نشوء هذا النظام البغيض فلا أجد جوابا لسؤالي . فقال أحد الحاضرين :

— لقد كان الرق أول خطوة من خطوات الرقى .

— أول خطوة من خطوات الرقى ؟!

— أجل ، ففي الأزمات الغائرة ، وفي عهد البداءة

الأولى ، كانت الحروب تشب بين القبائل المتجاورة ، فكان المنتصر يفتك بعدوه المهزوم ، ولكن لما تطور الإنسان ، واستوطن أرضا معينة تحتاج للزراعة والعناية ، شعر بالحاجة إلى استخدام الأسرى عوضا عن قتلهم ، ومن هنا نشأ نظام الرق ، وأصبح نظاما سياسيا في حياة الأمم ، واعتبره كثير من الفلاسفة نظاما ضروريا مطابقا للطبيعة .

فقال بلال :

— رأيتم أن الإسلام لم ينظر إليه كنظام ضرورى مطابق للطبيعة ، بل نظر إليه كنظام بغيض مألوف ، فعمل على استئصاله شيئا فشيئا . وإننى أظن أن المسلمين لو عملوا بما شرعه الدين الحنيف ، واتبعوا سنة الرسول الكريم ، لما انقضى كثير وقت قبل أن يصبح الرق كأمس الدابر .

واستمر الحديث بينهم حتى أقبل الليل ، فنهض بلال وانطلق إلى داره .

عقاب

جثم الظلام على مدينة عمواس ، فاتجه بلال إلى فراشه وأطبق جفنيه ، فطوقه سلطان الكرى بذراعيه ، فراح في سبات عميق . ونام الكون ، وهدأ كل شيء ، وظل بلال يغط في نومه . ثم تلمسل في رقده ، وانبسطت أسارير وجهه . وولدت على شفثيه ابتسامة خفيفة تنم عن الغبطة ، فقد رأى في منامه النبي الحبيب مقبلاً نحوه وعليه ثياب بيض ، فأنجفل إليه ، وسلم عليه ووقف معه والغبطة تشيع في نفسه ، والسرور يداعب قلبه ، وتحركت شفثا النبي فأرهف بلال سمعه ، فقال النبي معاتباً : « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورتنا ؟ » فهب بلال من نومه وصدى كلمات النبي يرن في أذنيه : ما هذه الجفوة يا بلال .. ما هذه الجفوة يا بلال ، فاجتاحته موجة من الأسى ، ووقع في نفسه حزن ثقيل . وغمغم : جفوة ؟ ! لا يا رسول الله .. انقضت سنون ولم أزر مسجدك ، ولكنها ليست بجفوة ، فما غاب رسمك عن عيني ، وما نسيك لحظة ، أو ونت شفثاي عن ترديد اسمك ، أو قصر لساني في الصلاة عليك . لا يا رسول الله إنها ليست بجفوة ..

سأشد الرحال من فوري ، وسأنطلق إلى يثرب مدينتك
المفضلة لزيارة مسجدك .

واتجه بلال نحو الباب وفتحه ، فرأى ظلمات بعضها
فوق بعض ، وتطلع إلى السماء فألقى نجوما خافتة ترسل
أشعتها ضعيفة واهنة فلا تلبث أن تغوص وتختفي في طيات
الظلام . لقد كانت ليلة حالكة السواد ، فلن يستطيع
الانطلاق قبل طلوع النهار ، ولكن متى الصباح متى ؟
أيقدر بلال أن ينتظر الصباح ونار الأشواق تسدلع في
صدره ؟ وراح الوقت يمر ويبدأ ويبدأ وبلال يذرع الحجرة
جيئة وذهوبا . ثم تذكر زاده ، وأنه لم يتخذ ما يصلحه
ويبلغه ، فراح يعده . وانهى من إعداديه ، ولكن الليل لم
ينته بعد ، فراح يتململ في ضجر ، فأنى له بجناحين يحملانه
إلى يثرب ، إلى مسجد الحبيب .

وفتحت زوج بلال عينيها فألفت زوجها يقطع الغرفة
مقبلا مدبرا وعلامات التبرم بادية عليه ، فسأله :

— ما بك ؟

— أريد الانطلاق إلى يثرب .

— ولم ؟

— لأزور مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

— ألا تهجع حتى يطلع النهار ؟

— طار النوم من عيني .

وابتداً أخيراً مولد النهار ، وبان في الأفق البعيد بصيص
من نور ، فخرج بلال مسرعاً واتجه إلى راحلته وامتطاها ،
وزجرها فهمت لتندفع صوب مدينة الرسول . وكان بلال
يستحثها على الإسراع بين الفينة والفينة ليلحق بالقافلة التي
خرجت بالأمس قاصدة يثرب ، فراحت راحلته تغذ في
السير وتنطلق لا تلوى على شيء . وطال به السفر ولحق
بالقافلة في الطريق فانضم إليها ، وكان طوال الطريق لا يسمع
إلا صوت نفسه ، وأتات المطايا التي كانت ترسلها كلما
أحست بالتعب وحنّت إلى الراحة . انطلق في طريق الشام
التي طالما قطعها أيام كان عبداً لبنى جمح يحمل تجارتهم ،
فما بعثت الطريق الذكريات في نفسه كما كانت تبعثها كلما
مر بها ، أو كما بعثتها يوم خرج إلى الشام لاستئناف الجهاد
والانضمام إلى جيش أبي عبيدة : كان منطوياً على نفسه
يفكر في عتاب الرسول له . وتكشفت له أرباض يثرب
فصار قلبه كجناح خافق ، فزجر راحلته فأسرعت ، وانفصل
عن القافلة ، ودخل يثرب وقلبه يضطرب في صدره . وأحس
رغبة تمتزج برهبة : رغبة في الإسراع إلى مسجد الحبيب ،
ورهبة من الوقوف في حضرته بعد هذا الغياب الطويل .
لظالماً دخل بلال يثرب ، ولظالماً خرج منها ، ولكنه بما شعر
بما يشعر اليوم به قط . ولظالماً قابل النبي في حياته . ولظالماً

زار مسجده بعد وفاته ، ولكنه ما اضطرب كاضطراب
اليوم ، ولا أحس حنينا كحنين اليوم .

وبان له مسجد الرسول ، فازداد وجيب قلبه ، وازداد
اضطراب نفسه ، وازداد حنينه ، وجدت راحته في السير
حتى بلغت باب المسجد النبوي ، فأناخها ونزل عنها وتقدم
في خشوع ، ثم دلف من الباب ، ولما أصبح أمام القبر
اضطرب ، وهتف بصوت تخنقه العبرات :

— السلام عليك يا رسول الله !

وأحس غصة في حلقه ، وترقرق الدمع في عينيه ثم سان
على خديه . وأطرق صامتا ، وراحت روحه تهيم في سماء
الذكريات ، فتذكر النبي ومشاركته له في السراء والضراء ،
في العسر واليسر . في الإقامة والظعن ، في الحرب والسلام ،
فاطمأنت نفسه ، وخمدت نار شوقه ، وبشعر بهدوء
وارتياح . وتصرم الوقت وما أحس بلال انقضاءه ، فقد
كانت روحه متصلة بروح النبي الحبيب . واستمر في
إطراقه ، وابتدأ الليل ينشر أجنحته على الكون وبلال في
مكانه لا يحس شيئا مما حوله ، ثم سمع صوتا يهتف :
بلال .. بلال .

فأفاق من غمرته ، ورفع رأسه . والتفت نحو مصدر
الصوت فرأى الحسن والحسين ، فتجددت أشجانه ، وترقرق

الدمع في عينه ، وأسرع إليهما يضمهما إلى صدره ويقبلهما
ويغفم : « كلما رأيتهما ذكرت بكما رسول الله » .

وساد السكون بينهم برهة ، ثم قال الحسن :

— متى أنت ها هنا ؟

— عندما مالت الشمس نحو الأفق دخلت القافلة يثرب ،

فاتجهت من فوري إلى هنا لزيارة النبي الخبيب .

— وأين تبیت ليلتك ؟

— في المسجد .

— ستبيت عندنا الليلة ، هيا يا بلال .

وخرجوا من عند الرسول ، وانطلقوا إلى دار الحسن .

وفي الطريق أخذوا بأطراف الحديث ، فالتفت الحسين إلى

بلال وقال :

— حرمتنا يا بلال من صوتك منذ قبض الرسول ،

ونشتهي أن تؤذن في السحر !

فقال الحسن :

— أجل يا بلال لقد حرمتنا عذب صوتك ، ألا تؤذن في

السحر ؟

— بلى .

ودخلوا الدار ولم يرههم أحد ، وبأت بلال ليلته ، ولما

سل سيف الفجر من غمد الغلس ، انطلق إلى المسجد وعلا

سطحه ، فأحس غبطة ، ولفح نسيم السحر وجهه فأنعشه ،

وأجال بصره في الدور الجاثمة حوله فقفزت الذكريات إلى رأسه ، ذكريات عهد الرسول . ورفع صوته بالأذان ، فانطلق مجلجلا في أجواء المدينة المنورة :

الله أكبر ، الله أكبر

الله أكبر ! الله أكبر !

فارتجفت المدينة ، وحسب القوم أنهم في حلم جميل ، والتفت كل إلى رفيقه وراح يسأله في إنكار : « أهذا بلال ! » واستأنف بلال أذانه :

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

فهب الناس من نومهم ، وقال بعضهم لبعض : « هذا بلال ولا شك ، ولكن ما جاء به من الشام ؟ » وفتح الرجال أبواب دورهم وانطلقوا إلى المسجد مسحورين مأخوذين بعذوبة صوت بلال الندي ، وصاح بلال مرددا :

أشهد أن محمدا رسول الله

أشهد أن محمدا رسول الله

فأطرق الرجال ، وهز الصوت أوتار قلوبهم ، ودمعت عيونهم ، وخرجت النساء من خدورهن ، وانقلتن إلى المسجد ، وتذكر الناس عهد الرسول فتحركت الأشجان ، وسالت العبرات ، وطأطأت الرؤوس ، فإذا المكان ساكن

سكون الرموس . وارتفع صوت بلال ثانية يدعو إلى الصلاة :

حي على الصلاة

حي على الصلاة

فتجاوبت أرجاء يثرب دعوته ، وهمهم القوم : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .
ورد بلال :

حي على الفلاح !

حي على الفلاح !

الله أكبر ! الله أكبر !

الله أكبر ! الله أكبر !

لا إله إلا الله

أتم بلال أذانه ، وظل الناس على إطراقهم حتى هبط وأضحى بينهم ، فالتفوا حوله وراحوا يسلمون عليه وأقبل عمر وعانقه . ثم قامت الصلاة ، فأم عمر القوم ، وكبر فكبروا خلفه وراحوا يصلون لله رب العالمين .

غدا نلقى الأحبة

قضيت الصلاة ، وانتشر الناس في الأرض ، وبقي بلال وعمر في المسجد يتجاذبان أطراف الحديث ويتحدثان عما فتح الله على المسلمين من بلدان الشام ، ثم نهض بلال وخرج ليزور أصحابه وأحبابه وليمتع الطرف يشرب التي أوتاه من عشرين سنة خلت ، يوم هاجر إليها طريدا معذبا منبوذا .
ومكث بلال يشرب ما شاء الله له أن يمكث ، ثم شاء العودة إلى الشام ، فراح يسأل عن قافلة خارجة إليها ، فعلم أن ثم قافلة ستخرج بعد يومين ، فراح يتأهب للرحيل . ولما جهز خرج يضرب في أحياء يشرب وضواحيها يتزود منها بنظرة قبل الانطلاق ، فكان كلما مر ببقعة تذكر ما حدث له فيها أيام النبي ووقف يودعها كما يودع عزيزا عليه ، أثيرا عنده . وأحس حزنا ما عرف تأويله ؛ فلقد خرج من مكة مشردا من عشرين سنة فما أحس هذا الحزن ، وخرج من يشرب مرات فما وقع في نفسه ما وقع فيها اليوم ، وانقضى الزمان ولم يبق على انفصال القافلة إلا ساعة ، فاتجه بلال إلى أصحابه يودعهم ، فكان كلما صافح أحدهم ترقق الدمع في عينيه ، وأحس برغبة في ضمه إلى صدره . وخرج

من عند عمر منقبضا فغمغم ، « ما دهانى اليوم ؟ وما هذا
الشعور الغريب الذى يسيطر على ؟ وما لدموعى اليوم
غزيرة ما تكاد ترقأ حتى تنهمر ؟ ولم أجوب يشرب وأضرب
فى أحيائها كأنما أودعها الوداع الأخير ؟ لعل هذا آخر
زياراتى لها ، ولعل لقائى هذا لأصحابى هو آخر عهدى
بهم ، ولعل عتاب الرسول لى كان دعوة لزيارة يشرب وأهل
يشرب قبل الرحيل الأخير » .

وانطلق بلال إلى القافلة ، ولم يكن يسير فى الطريق
وحده بل كان برفقة نفسه يحادثها . وبلغ الركب فامتطى
راحلته . وانطوى على نفسه ينتظر الرحيل .

سارت القافلة ، وسار بلال الهوينى ، وكان يتلفت خلفه
بين الفينة والفينة ، وأخذت يشرب تختفى عن عينيه شيئا
فشيئا . فشعر بلوعة ، ثم اختفت يشرب وغيبها الأفق فأحس
كأنما خلف قطعة من روحه خلفه . وراحت القافلة تضرب فى
طريق الشام ، وأخذت نفس بلال تصفو شيئا فشيئا حتى
ردت إلى طبعها ، وبعد سفر مضمّن طويل ، بلغت القافلة
الشام ، فاتجه بلال إلى داره ، وراح يستريح من وعشاء
الطريق .

واستأنف بلال حياته فى الشام ، وفى يوم من الأيام
أحس ضعفا واعتلالا ، فلزم داره ، وازداد الضعف على
مر الأيام ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فأصبح صدره يعلو

وينخفض . وجلست زوجه بجواره تمرضه ، فألقته يلتقط
أنفاسه بصعوبة ، وفتح عينيه فسأله :

— كيف تجدك ؟

فغمغم :

— دنا الفراق .

ونظر أمامه فخيّل له الوهم أنه يلمح أشباحا ، وجسم
خياله الأشباح فصاروا أناسا يحبهم ويحبونه ، وقفوا عند
فراشه ينتظرونه ، فهذا محمد ، وهذا أبو بكر ، وهؤلاء
أصحابهما الراحلون يدعونه ليلحق بهم ، فارتسمت على
شفتيه ابتسامة خفيفة ما لبثت أن اختفت ، ثم زفر زفرة
شديدة ، وأسبل عينيه ، وألقى رأسه على صدره ، فصكت
زوجه وجهها ، وأهت أهة ، وهتفت :

— واحزنناه !.

فغالب بلال ضعفه وفتح عينيه وغمغم وهو يجود بأنفاسه
الآخيرة :

— بل وافرحناه !. غدا نلقى الأحبة : محمدا وصحبه .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
هزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد)	ترجمة مع محمد محمد فرج	يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

الطبعة الأولى

سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاربي الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٤	(قصة حياة المؤلف)	هذه حياتي
أبريل سنة ١٩٧٤		ذكريات سينائية
سنة ١٩٧٥		كشك الموسيقى
سنة ١٩٧٥		خفقات قلب
سنة ١٩٧٥		صور وذكريات
سنة ١٩٧٧		الاسراء والمعراج
سنة ١٩٧٨		عدو البشر
سنة ١٩٧٨		أبطال الجزيرة الخضراء
سنة ١٩٧٩		التمر
سنة ١٩٧٩		الله أكبر
سنة ١٩٧٩		ثلاثة رجال في حياتها
سنة ١٩٨٠		مسجد الرسول
سنة ١٩٨٠		فات الميعاد
سنة ١٩٨٢		آدم إلى الأبد
سنة ١٩٨٤		العرب في أوروبا

محمد رسول الله

والذين معه

في عشرين جزءا

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو اسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يولية ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليتيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونية ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول

رقم الايداع ٢٢٢٧

الترقيم الدولي ٢ — ٣٥١ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه

الثلث ١٥٠ قرشا

To: www.al-mostafa.com